يوميات مسجون VIP..

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: يوميات مسجون VIP
اسم المؤلف	: محمد عباس علي داود
الغلاف	: محمد ضوهـ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/٢١٤٥٢
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١١٤-٤

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

يوميات مسجون VIP

محمد عباس علي داود

دار غراب للنشر والتوزيع

إهداء

لأُمٍّ ما لها مَثيلٌ أقولُ مُخْلِصًا.. حَفِظَكِ اللهُ

ملحوظة

هذه الرواية ليست تأريخًا لأحداث ولا سيرة لأشخاص وإذا كان هناك بعض تشابه بين بعض أحداثها وبين أحداث وقعت هنا أو هناك فهذا من قبيل التشابه وليس تعمد النقل أو التأريخ.

نظرة للخلف

لا أعرف لماذا كلما نظرت الى الوراء لا أجد إلا السراب.

وفي هذا الضيق - على عكس ما قدرت - تتسع الرؤى، وتتضح المعالم، فيبدو لي وسط الظلمة ما لم أرَه طول العمر، ذلك العمر الذي امتدَّ إلى درجة أن قلتُ لنفسي:

- كفى، إلى أين؟

السكون إما أن يكون فراغًا تصبح فيه وحدك قشة هشة تائهة في الكون، لا هي على الأرض فترضى، ولا هي في السماء فتهنأ، بل هي هكذا، معلقة، لا تعرف لها مقرًّا ولا مأوى، أو يصبح الفراغ فرصة لتعود به ومعه الى حيث تُملأ لحظاته بما يلوح لك وما يدور بك ومعك من أفكار تتجسَّد وتتعملق لتصير حاضرًا يتحدث عن أمسك، أو أمس آخر ينافس حاضرك في الوجود، أو هي ربما خليط من أزمنة شتى

تتحاور أمام عينيك، وأنت كلما تقدمت بك اللحظات تتساءل: وماذا بعد؟

الغرفة نصفُ مظلمة، صرتُ أراها متسعة بما يكفي لأنثر عبر أرجائها المتخمة بالرطوبة أفكارًا شديدة الحرارة حينًا، وحينًا آخر أفكارًا متدثرة بالحكمة.

الحكمة كما تبدو لي الآن تاج الفاشلين، يبررون بها فشلهم، ربما. وربما هي ملاذ العقلاء الذين يضجرون من ضجيج الحياة وصراعاتها فيلجؤون إلى الابتعاد واختيار الظل طوعًا، أو هي في مثل حالتي رغمًا عنهم، يلجؤون إليها، يتوارون خلفها ويسكبون حيرتهم بين يديها، وحين تضعهم على شط نهرها الجاري يرون صفاء مائها وسلاسة جريانه، فيدركون من أمرهم مالم يدركوه من قبل.

آاااااه.

هل أخطأتُ؟

ربما

وربما هو ذلك الوهم الذي بنيتُه ليكون صرحًا عاليًا فهدَّني!

مرقدي ينزوي بالركن الأيمن من الحجرة، أريكة بصعوبةٍ تكفي جسدي المتخم بالآلام، وإلى جوارها وعلى الأرض حصير عليها حامل صغير عليه كتاب الله، هذا كل ما احتجتُ إليه الآن، أما هؤلاء السجانون الذين يقفون ببابي فلم أفكر في توجيه اللوم إليهم، يكفيهم ما هم فيه الآن!

الرقاد هنا صار أروع من ذي قبل، ربما في الأيام القلائل الأولى كان حفرة من جحيم، لكنه بعدها رويدًا تحول إلى ملاذ وأمان، نسيت الفراش الوثير الذي كان يُعتنى به صبح مساء، مفارشه وغطاؤه تتغير في اليوم الواحد مرات، نسيتُ الورود والرياحين وأريج الياسمين ورياض القصر العامر بزهوره وبديع جنانه، نسيتُ عشرات العيون التي تتابع لفتاتي وتهُرع لتلبية أوامري راضية، ربما لا أفكرُ في هذا الآن، ولا أشغلُ بالي به لوجود ما هو أهم وأجدى.

أُحدِّقُ إلى الركن المظلم هناك، الجدار المُعبَّق بالرطوبة والظلمة وفراغ التيه صار أنيسي، أحدقُ إليه بقوة، تتراءى على صفحته رؤى تشدُّ نفسي إليها، أبصرُ ما لم أبصره من قبل، أفتح عيني وأهوي إلى الأمس، أدور في لحظاته وثوانيه مُنقِّبًا ولا أمّل من التنقيب والبحث، ربما لأنني لم يعد لي إلا هذا.

حكاية القطة

قد يكون للقطة تاريخ طويل مع البشر إلى درجة أن المصريين القدماء اعتبروها إلهة للخصوبة والأمومة، أما معي فالأمر يختلف تمامًا، فأنا منذ البداية كنتُ أتحاشاها، أو لنقل إني كنت أخشى الاقتراب منها، أراها ربما في منطقتنا الشعبية مثارًا للرثاء والشفقة من بعيد، ولا أفكر في الاقتراب منها لخوفي من جسدها الذي ربما حمل الحشرات الدقيقة التي لا تراها العين وتنقل الأمراض؛ لذا كنتُ أنظرُ وأتعاطفُ معها عن بُعد ولا أفكر مجرد تفكير أن ألمسها، إلى أن كان يومًا والكهرباء مقطوعة عن المنطقة، والظلام سيد الليل، والسكون بساط الحارة، وأنا أسير وحيدًا عائدًا من المقهى ليلًا، أتلمس طريقي محاذرًا، حين اهتزت روحي بعنف، ورأيتني أحدقُ بأقصى ما تمتلك عيناي من اتساع على ضوء شعاع من مصباح نافذ من أسفل أحد النوافذ المطلة على الحارة، كان الشعاع أصفر اللون، باهتًا بعض الشيء، لا يكاد يمتلك المقدرة على

إيضاح الصورة كما يجب أن تكون، وفي ذات الوقت لا تستطيع أن تقول هنا إظلام، رأيتُ حركة تموجية سريعة لثعبان أرقط ترسم في قوة ثمانيات وسبعات على الأرض، محاولًا قطع الطريق من جدار إلى آخر، وقطة سوداء بصعوبةٍ حددتُ كيانها الفاحم وسط العتمة، بينما خضرة عينيها نجمتان تتألقان بقسوة وهما تتربصان بالثعبان الغاضب الذي وجد أن الإفلات منها صعب، كانت تحاصره بأقدامها لتمنعه من الهرب، وفي ذات الوقت تأخذ وضع الاستعداد وتنفش ظهرها وتُقوِّسُه وتصدر زمجرةً غاضبة تتحدى بها قدرته على الوثوب إليها واعتصار جسدها بعضلاته التي لو أطبقت عليها لاعتصرتها شَرَّ اعتصار، وكلما اقترب من جدار قطعت الطريق عليه وهي تمدُّ قدمها أمامها بانتظار أن يهاجمها فترد هجومه، وفي ذات الوقت تحاذر أن تقترب المسافة إلى الحد الذي لا تملك معه القدرة على المناورة والبُعد في اللحظة المناسبة عن سُمه الزُّعاف وعضلاته، كان المقهى قريبًا إلى الدرجة التي لو صرختُ سيسمعني بعضهم ويأتي، لكنني لا أعرف لماذا لزمتُ الصمت، شدَّتني المعركة والمناورات الذكية التي يبديها الاثنان وهما مشغولان عني بقتالهما المثير، اقتربت قليلًا إلى أن لزمت أحد الجدارين وبيدي حجر التقطته من الأرض منتظرًا فرصة لأصوبه إلى رأس الثعبان الذي مضى إلى الجدار الآخر، قطعت القطةُ عليه الطريق فاستدار سريعًا ناحيتي، وقع قلبي من الخوف، سقط الحجر من يدي، وارتعدت كل ذرة في جسدي وأنا أراه يصل لساقي، يدور حولها، يعتليها صاعدًا، فتحت فمي لأصرخَ، خرج الهواء منثورًا ولم أنطق بحرف، ورأيتني أحاول

الهرب والجسد المرعب بملمس جلده الناعم يشل ساقي اليسرى وهو يتمدد صاعدًا في ثقة، ولم أدرِ إلا وأنا أمدُّ يدي الاثنتين مرة واحدة، أطرحه بكل الرعب عني، يرتطم بالجدار ويهوي أرضًا، تتلقاه القطة بأظفارها وأنيابها، أهرول إلى حجر كبير لا أدري ليلتها كيف حملته، ربما من أثر الرعب، أو هي قوة في الإنسان لا تظهر إلا وقت الخطر، أو ربما قوة ما ساعدتني وحملته معي، لا أدري كيف؟ ما أعرفه أنني حملت الحجر، اندفعتُ إلى رأس الثعبان، ضربته بكل قواي، همدت الرأس لحظة كانت كافية لأن أكرر فعلتي ليستمر الهمود، أعاود الضرب ثالثًا، يتفجر الدم من الرأس، ينتفض الجسد بقوة، يتراقص رقصة الموت قبل أن تهدأ حركته ويطويه الموت، ليلتها رأيتُ ما لم أرَهُ من قبل، وعرفتُ ما لم أعرفه، وبدأت رحلتي مع القطط..هل أقول ما رأيت؟

ولِمَ لا؟

لكني منذ رأيتُ ما رأيت في تلك الليلة عاهدتُ نفسي على الكتمان حتى عن تلك السطور. على كلٍّ يكفي أن أبوح ببعض وأُخفي بعضًا.

وقفتُ والقطة مُتواجهين، وكلٌّ منا يحاول السيطرة على نبضاته، حدَّقت القطة في عيني، الأحداق الشريطية رأيتُها مستديرة كأعين البشر، خُضرتها ناعمة تمتدُّ كبساط يحوي فوق أديمه شُكرًا وعرفانًا، تعتدل في وقفتها، ترمي رأسها إلى الخلف في أَنَفَةٍ، تهمس بصوتٍ حانٍ بكلمات شكر، لا أدري كيف فهمتها؟ وهل قالتها بلغتي فلم تفتني، أم قالتها بلغتها ففهمتها، أم هي لم تنطق ومن نظرة عينيها أدركتُ ما تريد؟

حقيقة حتى الآن ما زلتُ أتساءل: عن الكيفية التي رأيتُها تلك الليلة بها والكيفية التي سمعتُها بها. هرولت حينما استدارت عني إلى ظلمةٍ مالها قرار عائدًا إلى المقهى، صارخًا:

- شفتوا ما جرى؟ ثعبان كبير قتلته بحجر.

هرولوا معي إلى المكان الذي ما زالت فيه بقايا رأس الثعبان وجسده. الغريب أنني ليلتها دون اتخاذ قرار أو التفكير في إخفاء شيء أو شيء من هذا القبيل رأيتني أخفي عنهم حكاية القطة، وكانت تلك بدايتي معها!

محبس جديد

لا أعرف إن كان لي أن أسأل عن العلاقة بين المرأة والقطة؟

كلتاهما أراها الآن متأججة في مشاعرها ما بين الحب الشديد والبغض الشديد أيضًا، إذا أحبت اندفعت إلى درجة الذوبان، وإذا أبغضت فإلى أقصى ما يمتلك القلب أو الروح من سواد، لا أرى القطة كما يراها البعض غادرة، سريعة التمرد، لا تصون الود، أو هي ناكرة للجميل بالمعنى الدارج، لا أراها هكذا أبدًا، مواقفها معي تقول إن هذا القول هراء، أو هو مبالغة شديدة لا تليق بقطة أصيلة من أصل مصري صِرف، فالقطة المصرية من أذكى أنواع القطط في العالم، تُبادِلُك عملًا بعمل وشعورًا بشعور، لا تبالي في سبيل الوقوف إلى جانبك بشيء ولا تأبه لشيء، بل تندفع وسط النيران لتنجيك وتحمي ظهرك، مثل المرأة في عنفوان حُبِّها، وقد قرأت من قبل بخصوص علاقة القطة بالمرأة – خاصة في مصر القديمة – ما يلي:

القطة كانت معروفة في **مصر القديمة** باسم "ماو"، كان لها مكانة مهمة في المجتمع المصري القديم، وبسبب مكافحتها للحشرات وقدرتها على قتل الثعابين مثل **الكوبرا**، أصبحت رمزًا للنعمة والاتزان. ثم أصبحت مع مرور الزمن إلهة تمثل **الحماية، والخصوبة، والأمومة**.

وقد أُقيم لها معبد كبير كان معروفًا باسم معبد الإلهة باستيت وفيه تماثيل لها على هيئة القطة الوديعة، ثم أدمجت باستيت مع الإلهة سخمت في الدولة الحديثة، حيث تم تمثيل سخمت في هيئة امرأة لها رأس لبؤة مفترسة. فعندما تغضب باستيت الوديعة تصبح سخمت الشرسة، وتنتقم من الأعداء ومن هو ذو خلق رديء. كانت مدينة بوباستيس (تل بسطة) مركز عبادتها. وترمز القطة إلى الإلهة باستت، ابنة إله الشمس رع، التي كانت تصورها الرسومات على شكل امرأة لها رأس قطة. لذا تُعتبر "باستيت" إلهة الحنان والوداعة، فقد ارتبطت بالمرأة ارتباطًا وثيقًا.

وقد ذكرت الإلهة باستيت في نصوص الأهرامات منذ عهد الأسرة القديمة، وكانت إلهة الخصوبة تمثل في هيئة قطة، أو في هيئة امرأة رأسها رأس قط أو رأس اللبؤة وكانت تمثل الخصوبة والحب والحنان وحامية المرأة الحامل.

لذا أفكر كثيرًا هذه الأيام في هذه القطة، نعم أفكر فيها، ليس كإلهة بطبيعة الحال ولكن ومن خلال ما رأيتُه منها أفكر فيها كمنقذة تستطيع عمل شيء الآن، فلن ينجيني من هذا الموقف إلا هي، ما دامت المرأة – زوجتي حفصة – لا تستطيع فعل شيء.

أحدق إلى ظلمة الجدار كعادتي منذ حين، وأرى كما لم أرَ من قبل وبكل الوضوح القطة تجمع زميلاتها كما جمعتهن من قبل، تهاجم هذا السجن الكبير، تعتلي الأسوار، تقتحم الأبواب، تكسر القضبان، تقاتل الحراس، وتفلت من نيران البنادق لتصل إليَّ، تقودني خارجة إلى حيث أرى النور من جديد.

أنتبه لشيء يخمش قدمي، أنتفض فرحًا وأنا أظن أن أحلامي قد تحققت بأسرع مما تخيلتُ، أظنُّها القطة قد قرأت أفكاري وهُرعت مُتوثبة إلى نجدتي، أتباعد فورًا عن خواطري لأنظر راجيًا أن تكون هي. لا شيء سوى البعوض الذي لا يجد تسلية وربما رزقًا إلا على جلدي.

أعودُ إلى لُجة الشرود، أرتعدُ لصوت صاعق يبدد بقسوته وعنفوانه رياض السكينة التي أنعم فيها ومعها، الباب الحديدي يفتح وفيض من النور والهواء يغافلان الحارس، ويهرولان إلى الداخل ربما للاطمئنان على صحتي، تعلن مفاصله عن نفسها بأقبح ما يكون الإعلان، ويظهر أمام الباب الوجه الذي لا أطيق رؤيته للرجل المكلف بمراقبتي.

- تفضل معي

احترام زائف تكذبه عيناه وبرودة حروفه.

- الى أين؟

أسأله، يرد باقتضاب:

- منزل جديد.

- لماذا؟

- تعليمات.

يدير رأسه وهو يُلقي بالرد المثلج دون أن يأبه بتقديم مزيد من الإيضاح، أقوم متمهلًا مراودًا مفاصلي ومُهدهدًا لها حتى تطيعني وتقبل بالقيام، صفان من الحرس أمام الباب يحيطونني في أولى مراسم الرحيل عن هذا القبر الملعون، أتحرك للأمام وأنا أتحاشى النظر خلفي حتى لا أراه من جديد.

يتحرك الموكب مغادرًا، أرى من خلف قضبان العربة التي احتوتني ككفن متحرك، الشوارع منطوية صامتة كمدًا كأنما هي تنعى سيدها القديم، أرى جدران البيوت مشرئبة كأنما تطل على الموكب متسائلة عما جرى لي، أخفض رأسي مكابدًا قسوة الدموع وجموحها، ولوعة القلب وشجونه، وأنا أحاول إقناع نفسي بأن هذا كان لا بد أن يحدث ما دام كان مكتوبًا في دفتر القدر، وعليَّ أن أعي هذا وأتقبله حتى تسير بقية أيامي على نحو سهل، فيه يسر وبلا تعقيدات من إحساس بالغبن أو شعور بأسف، أو حتى اجتياح آلام المهانة وعذاباتها أرجاء روحي دون قدرة لي على صَدٍّ أو ردٍّ.

وصلنا إلى منزل صغير على حافة المدينة محاط بحرس خاص يرتدي ملابس مميزة أعرفها جيدًا، وبيدهم أسلحة سريعة الطلقات، وفوق أعينهم نظارات سوداء تخفي معظم الملامح وتمنح الناظر إليهم شعورًا بالرهبة، أدوا التحية فور نزولي من العربة وفي أثناء اقتيادي إلى

الداخل فذكروني بالتحية القديمة التي كانوا يؤدونها بإخلاص كأن روحهم تثب مع أيديهم مُحيية بالسلام.

المنزل يبدو نظيفًا راقيا عكس السجن القديم الذي ظننته في أول مرة رأيته فيها مقبرة فرشها مسنن بآلاف الحراب، وجدرانها تفيض بالكراهية والمقت، وهواؤها يفيض بالضيق والنفور، وضعوني فيها ولم يفِ أحدٌ بما وعدوني به من الحفاظ على حياتي وحياة أسرتي، والعمل على عدم محاكمتي مهما تكن الأسباب، حاولت توصيل صوتي إليهم وتذكيرهم بوعودهم دون جدوى، جدران حديدية أقيمت فورًا بيني وبينهم كأنني لم أكن يومًا كبيرهم الذي يبذلون الروح من أجل الحفاظ عليه ورعايته والزود عنه بكل ما يمتلكون من قوة، رأيتني أُقيمُ في هذا السجن الملعون، وأدركتُ أن النهاية قد دنت، ولم يعد للعهود مكان، ولم يعد للوفاء بالوعود معني، لقد صرت كارتًا محروقًا مصيره بيد العامة قبل أن يكون بأيدي المسئولين، البسطاء أصحاب الحناجر النحاسية والأيدي الممصوصة العجفاء الذين كانوا منذ أيام أو شهور يهتفون لي بكل العزم والحماسة (بالروح بالدم نفديك) صاروا اليوم يتحكمون في مصيري!

ترى ما الذي يجري لينقلوني إلى هنا؟

على كلٍّ ومهما تكن الأسباب هنا توجد تهوية وشمس تدخل بحرية وتخرج وقتما تشاء، وهنا أيضًا حديقة غناء واضح أنهم يهتمون بأمرها، ويروون ظمأها، ويراعون هيئتها وبهاءها، الأسوار من الخارج

عالية يحيط بها الحرس، أما من الداخل فتركوا لي حرية الحركة، الأجمل من هذا أن هناك أوراقًا وأقلامًا يمكنني عن طريقها البوح كيفما أشاء بدلًا من اختزان فوران الحروف في صدري.

وهأنذا قد أمسكت بالقلم، فتحت الأوراق وبدأت التدوين.

شيء رائع أن تبوح ولو للورق، وأن تفرغ شحنة ما من صدرك، لحظتها تشعر أنك رويدًا تتخلص مما كابدت من ألم، وأنك جربت المخاض، وكان الوليد حروفًا تتراصُّ فوق السطور.

مسعود.. والكرسي

لا أعرف حتى الآن - وخاصة في هذه السن المتقدمة - كيف يتحول الحب العميق إلى كُره عميق أيضًا؟

لكن هل أنا كرهت ولدي مسعود حقًّا، أم كان الأمر حنقًا هائلًا ألّم بي؟

كان اليوم الذي اعتُقلت فيه هو الفيصل، رأيتني بحجم حبي له أنقم عليه، أتلظى بنار لا أمتلك قيادها، أو حتى التحكم في درجة تأجُّجها، وأندفعُ كطوفان جامح لا حدَّ له، يقتحم ويَدُكُّ ويطوي، دون أن يمتلك ترف السؤال : كيف، أو لماذا يقتحم؟ أو حتى الى أين سيظل هادرًا لا يعرف تهدئة ولا يفكر في توقف؟

فكل ما تجشمتُه كان بسببه، ولصالحه هو، بينما هو هناك ينعم بالدفء في فراش التكاسل واللا مبالاة، فهو لكي يأخذ مكاني عليه أن

ينال مباركة رؤساء العشائر والأقاليم المنتشرين في مشارق البلاد ومغاربها وتأييدهم، وهذا لا تصلح له الخطابات أو الرسل المؤتمنون، ولكن لا بد من اللقاء والمساومة، ثم الموافقة والبيعة والعهد، وبعدها يستريح على الكرسي العالي آمنًا مطمئنًّا شامخًا بأنفه في كبرياء وأنفة، وقد كنتُ – حقيقة – في قرارة نفسي رافضًا لهذا تمامًا، لا أراه بصريح القول أهلًا لأن يعتلي مكانًا كهذا يحكم الناس ويفرض رؤيته على إرادتهم وحياتهم، فهو أقل من أن يقنع أحدًا برأي مهما يكن مقتنعًا به، فضلًا عن إقناع أفراد أو جماعات، فكيف يتسنى له أن يرتفع فوق أعناق لن تنظر له إلا بالكراهية والحقد وانتهاز الفرصة التي لا بد ستسنح لكي يقفزوا عليه ويسلبوه مكانه، وربما ألقوا به في غيابات السجون؟

لكنها أمه حفصة، هي التي ألحّت ورتبت وجهزت وفرضت رأيها عليَّ بالإلحاح والبكاء تارة، وبالتهديد تارة أخرى بأنني يومًا ما سأضطر لترك الحكم وحينها لن أجد وفاءً من أحد، ولن أرى عهدًا يُصان، ولا كرامة تُحفظ، بل ربما ألقوني بين براثن محاكمة تنهش روحي بلا هوادة وتقتنص فؤادي بلا رحمة ولا إحساس؛ مما جعلني أسعى لبذل الجهد من أجله، وقررتُ القيام عنه بالسفر هنا وهناك لأسباب عديدة، لعل أهمها المحافظة على الأسرة بعد تخليها عن الكرسي العتيد من الملاحقة والانتقام.

كنتُ وما زلتُ أحبُّه، هذا صحيح فهو ولدي، وحبي له فوق ما أدرك أو تمضي بي الأفكار والأحاسيس، وكيف لا أحبُّه وكيف لا أرتبطُ

بكل ما أسماه البشر مشاعر وأحاسيس مع ابن وحيد هو لي كل شيء، ابن رأيته أمنية سامية تمنيتها أيامًا طويلة، وحين هلَّ هلالها سعدت بها ورضيت، حمدتُ ربي كثيرًا ودعوته أن يحفظه ويرعاه، وفي كل لفتة كنت أراه النبع الذي تستقي منه الروح الحياة والعين النور، كنت أراه نبتة خضراء يانعة، تنمو في براح القلب، وتتألق تحت سماء الروح، وتتدثر بدفء الأنفاس في كل حين، وحين اشتدَّ عوده واستوى شابًّا يملأ العين شاركت أمه - رغمًا عن كل أفكاري عنه - بالحلم بيوم زفافه إلى الكرسي الكبير، وبلحظة وقوفي وسط الخلق رافعًا الرأس شامخًا بأنفي قائلًا:

- لقد أنجبتُ وربيتُ، وهأنذا أتوّجه على بلد عظيم يكون فيه تاج الكبير الحب، وقانونه العدالة، ونظامه الإصلاح.

قلت له هذا.

وقفَ محدقًا بعينيه الواسعتين السوداوين اللتين تطلقان حدقتيهما، تبرقان في وجهي دون أن ينطق بحرف، شرحت له الأمر كما يبدو لي تفصيلًا لكي يعرف أي كرسي سيعتلي وأي قوم سيكون عليهم كبيرًا.

- الكرسي يا ولدي هو الرباط لكل من حولك.

هو الحاكم الذي تخضع له الرقاب وتنزوي أمامه كل الآراء.

ولا يبقى لهم إلا المشورة حين تطلبها، والطاعة في كل حين.

عادة هم لا ينظرون إلى من يعتلى الكرسي.

يرونه أبعد من نظراتهم وأعلى من رؤوسهم.

قد يغتابونه بكلمات خفية خلف الأبواب المغلقة.

وقد يتجرأ أحدهم وسط العامة ويرمي بكلمة عاصية لكنهم متى ظهرت لهم وبدت قوتك أمامهم انحنت لك رؤوسهم ولجمت أفواههم ولم يبدُ منهم إلا البسمات والأدعية والقول المأثور:

- بالروح بالدم نفديك يا فلان.

وفلان هذا يا ولدي مهما يكن ومهما تكن صفته ما دام يعتلي الكرسي فسوف يطيعونه في كل حين، شرط أن يعرف متى يتكلم وماذا يقول، وهل يظهر السيف أم يشير بالجزرة، وكيف يحافظ على شعرة معاوية.. تلك الشعرة مهم جدًّا يا ولدي أن تحافظ عليها، ترعاها وتضعها دومًا نصب عينيك.

أفهمتَ يا ولدي؟

فرد ذراعه اليمنى في وجهي ومد إصبعه السبابة إلى مستوى عيني محذرًا:

- الاختيار لي.

حدقتُ إلى عينيه مأخوذًا وأنا أرى الإصبع الصغيرة التي ربيتها من ذوب روحي تشتد وتكبر لتمتد عقيمًا في وجهي، قلتُ:

- يا ولدي، أريدُك أسعد الناس.

قال: أنا أدري كيف أصنع سعادتي.

قاومتُ إحساسًا بالضيق يجتاح روحي من نقاشي معه، وكرهتُ محاولتي أن أزرعه في أرض ليست له وليس لها.

قلت: الخبرة لا غنى عنها.

قال: زمانُك ولَّى، ولم تعد خبرتك تفيد في زمن ليس لك.

تزايدت صبغة السواد في نبضاتي وأنا أصغي إليه، حتى وأنا أجاهد نفسي لأكبح جماح رفضي لإلحاح أمه ومحاولاتها المستميتة لفرض رؤاها أراني أبذل جهدًا أكبر لإقناعه بأمر أنا ذاتي لستُ مقتنعًا به!

اتسعت مساحة الدهشة في براح نظراتي وتأججت في صدري نيران غضب عارم كتمته بصعوبة، عدتُ أقولُ:

- حُسن الاختيار لا يعرف زمانًا.

قال: لا أتوق إليه.

قلتُ أخيرًا وقد شعرت بأن الحجج التي أسوقها إليه بليت وتهرأت من كثرة ترديدي لها:

- لقد تحدثتُ إلى رؤساء العشائر والأقاليم وانتهى الأمر.

أدار وجهه عني:

- لم ترجع إليَّ

رأيتُني أُحدِّق إليه لحظتها وأراه كما لم أرَه من قبل، أرى قلبًا غريبًا عني وروحًا نائية عن روحي ووجهًا كنتُ أظنني أعرفُه، فقد حلمت بلحظة انتظرتها سنين عدة، حلمت بها لفتة لفتة، وكلمة كلمة، ومهدت لها في طول الأرض وعرضها، حلمت بلحظة من أجلها صاحبتُ من أكرهُ ورافقتُ من أخالِفُه الرأي، واستشرتُ من أزدري رأيه ولا أقيمُ لكلماته وزنًا، قلت للجميع أن ابني هذا سيكون خليفتي من بعدى، له ما كان لي وعليه ما كان عليَّ، وقررت من أجله السعي بين مشرق البلاد ومغربها لأخذ البيعة بنفسي وإعطاء العهود بالأمان.

وجاءت اللحظة التي حلمتُ بها، لكنه كعادته هدم الحلم وزاد مرارة الواقع وكسر مرايا الوهم التي كنتُ أراه من خلالها، وهو يقف بين يدي رافعًا صوته:

- أنا لا أصلحُ لخلافتك!

تناثرت النظرات، تدافعت الكلمات، احتدَّ الأمر، وبكت أمه أمام عينيه راجية منه التريث، وعدم التسرُّع في أمر قد يكلف الأسرة كلها مستقبلها، واجهها محتدًّا:

-أنت لا تريدين مصلحتي أنا، بل مصلحتكم.

ألقت بين يديه نظراتٍ متوسلةً:

- وما الفارق بين الاثنين؟

حدق إلى عينيها:

- الفارق أنني لا أريد.

وقفتُ حائر النظرات أحدق إلى الولد الخائر العزم، الذي يخشى مجابهة الصعاب التي لن ينال منها إلا المشكلات والقلق كما يقول، وبين أمه التي لم تَرَ فائدة ترجى من الحوار معه، فلجأت إلى حيلة أعرفها جيدًا لطول ما خبرتها، وادَّعت الإغماء، سارعت إلى نجدتها تاركًا لولدها المجنون هذا أن يقوم بجهد أكبر في إفاقتها ويعلن صاغرًا موافقته على ما نريد له!

بعدها طلبت منه أن يجهز نفسه لبدء الرحيل لمقابلة رؤساء العشائر والأقاليم والاتفاق معهم وأخذ العهود بمناصرته والوقوف إلى جواره، سألني:

- وهل لهذا أهمية؟

رميته بنظرة يستحقها وأجبت:

- كل الأهمية.

ثم تشاغلت عنه!

أتوقف قليلًا عن الكتابة، أدير عينى في المكان حولي بهدوء ورويـة كأنما أبحثُ عن شيء لا أدري ما هو، أعود وأمسك القلم الشارد الذهن، الساكن بين أصابعي بينما أفكاره مبحرة في غياهب الأمس البعيد، أعود إلى بداياته معي، أو بداياتي أنا معه، حتى قبل أن يولد هذا الولد كان هكذا، مكتوبًا في دفتر الغيب أنه جاحد، عنيد، لا يقيم وزنًا

لأبويه، لا أعرف لم، عيناه لاهيتان، كلماته حادة، مسننة، إذا أحب شيئًا أدمنه، ويا ويل من يفكر أن يأخذ شيئًا يخصُّه.

وقد كنت رغم كل شيء أحاول التقرب إليه، ومحادثته ومحاولة إدخاله في مجال العمل معي وكان ينفر، دومًا كان يفعل غصبًا عنه، ويُبدي الضيق والتبرم كأنه مُساق إلى هلكته.

وحينما كان يُثير المشكلات مع أمه وأحاول الإصلاح بكلمة تنهي الأمر يرميني بنظرات التذمر مجبرًا على طاعتي.

أذكر جيدًا ولا أنسى أبدًا ذلك اليوم الذي استدعيته فيه إلى مكتبي بعد مشادة حامية مع شقيقته سعاد، يومها تدخلت أمه منتصرة للبنت التي اعتدى عليها بالضرب، طلبت أمه منه الاعتذار، صمَّم على الرفض، قالت لي همسًا حينما اختلت بي:

- هذا الولد يحتاج لقبضة حديدية للتعامل معه.

تبسمت معجبًا بعبارتها تلك وتساءلت:

- قبضة حديدية! مع مسعود!

أشاحت بيدها:

- أنت لا تعرفه.

وقصَّت عليَّ ما كان، مصرة على تأديبه واتخاذ موقف حازم معه.

فكرت قليلًا يومها ووجدت أن الطريق الوحيد للتعامل معه هو مناقشته وإقناعه، وإخراجه من مجال اللهو الذي يقضى وقته فيه إلى مجال العمل معي ليكون كفئًا لمهام كثيرة قادمة بصفته ولدي.

استدعيتُه إلى مكتبي، جلستُ أُحادثه عن العائلة والتراحم والمودة وكيفية امتصاص غضب الأم والرفق بالشقيقة والحنو عليها، ظلَّ ينظر نحوي محدقًا بعينيه الواسعتين السوداوين اللتين تطلقان حدقتيهما تبرقان في وجهي دون أن ينطق بحرف، أخذ يتململ في جلسته منتظرًا أن أطلق صراحه فيهرول خارجًا ملقيًا بكلماتي في أقرب سلة مهملات. رأيتُه صامتًا لا يتحدث، صرخت فيه:

- تكلم يا مسعود، قل ما لديك.

رماني بحدة نظراته قائلًا:

- إذا تكلمت سأغضِبُك.

- ولماذا تقول شيئًا يُغضبني؟

- بصراحة، لأن هذا ما في صدري.

- أنت ناقم على والدك إذًا.

- ليست نقمة، اعتبرها ملاحظات.

- تفضل، قل.

- ولن تغضب؟

- لن أغضب.
- أراك ضعيفًا.
- نعم!
- لا تمتلك القرار.
- ماذا تقول؟!
- ماما تفرض رأيها عليك.
- ماذا؟
- تفعل ما تريد، وأنت لا تمتلك إلا الطاعة.
- أنا؟
- في الوقت الذي تبدو فيه مع الناس خارج المنزل عنيفًا ترفض الرأي الآخر، ولا تقبل إلا رأيك فقط.
- وماذا أيضًا؟
- هذا كل ما عندي.
- تسمع الجواب؟
- تفضل.
- الحكمة تقول إن البيت واحة الإنسان وملجؤه بعيدًا عن مشكلات الحياة، هل توافقني في هذا؟

- أوافقك.

- هل تقبل أن يكون ملجأك والواحة التي تستريح فيها حفرة من نار؟

- لا.

- إذًا لا بد أن تكون لينًا مع من فيها.

- لينًا وليس خاضعًا.

- يا بني، اللين هو الاستماع وتقبُّل الرأي المفيد وتنفيذه إذا استطعت، وإدخال السرور على أهلك.

- ليس بهذا الشكل.

- وما الشكل الذي تراهُ أنتَ؟

- لا يرتفع صوت في بيتي إلا صوتي أنا مهما تكن الأسباب.

- يا بني، القدماء كانوا..!

- ليس لنا شأن بالقدماء.

- حينما تكبر أتمنى أن تفعل ما تقول الآن.

- هل تريد شيئًا آخر؟

- لم أكمل حديثي معك.

بدا على وجهه الضيق، وجلس متأففًا ومنصتا رغمًا عنه.

جاءتني مقابلة عاجلة شغلتني عنه فقمتُ دون أن أكمل النقاش، ولم أكمله بعدها ثانية، وإن كنت قد عاقبت من يعلمه أصول الحوار والبروتوكول لفشله في تلقينه كيف يتصرف أو يتكلم، خاصة مع والديه!

زيارة حفصة

اتسعت مساحة الدهشة في هذا الكون الجديد الذي صار يحتويني، دهشة بلون العيد ملأت جوانحي وأنا أرى حفصة زوجتي أمامي في سجني المُرفَّه على حافة الكون هنا، والمحاط بالحرس من كل زاوية وفي كل ركن، حفصة تدخل مرفوعة الرأس، عالية الجبين، قادمة في سيارة سوداء مهيبة المنظر، كملكة تسير في أبهة عزها وفخامتها، نزلت منها بهدوء ووقار كما كانت تفعل قبلًا وربما أشد، يقف الحرس انتباهًا وتقديرًا، سارت ولم تلتفت إليهم كما كانت تفعل قبلًا، يقودها كبير الحرس إلى الباب الرئيسي ومنه إلى الردهة، تتجه قدمًا إلى صدر الأنتريه في خطوات متمهلة وقورة، تجلس واضعة ساقًا على ساق وهي تنظر إليه بنظرات متسائلة: وماذا بعد؟

يحني رأسه باحترام هامسًا:

- سنبلغ الباشا فورًا.

ويصعد إليَّ:

- زيارة يا فندم.

أنظرُ في حدقتيه متوجسًا.

هل قال زيارة؟

ومَن يجرؤ على القدوم إلى هنا؟

أم هي رسالة يريدون توصيلها لي؟

أو ربما أمر يريدون مشورتي فيه بصفتي خبيرًا قضى معظم عمره في إدارة هذا البلد بحنكة واقتدار؟

تأنقت في ملبسي، عطرت وجنتي وشعرى بعطري المفضل وهبطت السلم متوقعًا كل شيء عدا أن أرى حفصة.

وقفت أمامها والحرس بيننا لا أدري ما أقول، اندفعتُ فورًا إلى أحضاني تُقبِّلني في وجنتي، متسائلة عن صحتي، وكيف أقضي الوقت في هذا المكان الكئيب، وهي ترمي بنظرات تأفف وضيق على المكان الجديد الذي يعتبر جنة بالنسبة للمقبرة القديمة التي رموني فيها من قبل.

كم تغيرتِ يا حفصة! ذبلت نظراتك، وجفَّ ماء الشباب في وجهك، ونحل جسدُك، وإن لم تفارقك نظراتك الحادة الفاحصة

المتربصة بكل ما حولها ومن حولها، للحق هي لديها سرعة بديهة تحسد عليها، تمتلك مقدرة هائلة على التقاط أي بادرة أو لفتة من هنا أو هناك وفحصها وبرمجتها وتفسيرها والرد عليها بأسرع من البرق، وهذا ما أفتقده أنا، فأنا لا بد أن أنظر وأدرك وأفكر وأخطط ثم أفعل.

المهم، صرفت الرجل بنظرة شكر آمرة من رأسها بوجه مُتجهِّم لا بشاشة فيه، استدار بهدوء مغادرًا إلى مكتبه بجوار الباب، وانفردت بي:

- وحشتني.

- كيف؟ ولماذا؟ ومن؟ وما؟

أفلتت بسمةٌ من غيوم ملامحها، بسمة ذابلة كنظرات عينيها وهي تطلب مني التريث حتى تحكي ما لديها:

- ماذا لديك؟
- لن يستطيع مخلوق هنا أن يؤذينا.
- كيف؟
- سأحكي لك.

وروت لي ما لديها بهدوء وهمس وهي تدير نظراتها حولها متربصة بأي عين قد تفكر في اقتحام خلوتنا أو أذن تحاول التلصُّص على حوارنا، وفي ذات الوقت تثقب المقاعد والأريكة بعينيها باحثة عن جهاز تسجيل هنا أو هناك يلتقط شيئًا من حروفنا. قالت إنها منذ زمان طلبت من أخيها الذي يشغل مركزًا مرموقًا تسجيلات فاضحة لبعض

المسئولين، مسئولين ممن يمتلكون زمام الأمور الآن، وبعض مسئولي البلاد المجاورة ممن يهمهم أن تظل هذه التسجيلات بعيدة عن الأيدي العابثة أو العيون المتربصة، وأن تظل مختفية مهما يكن الثمن، هذه التسجيلات بطبيعة الحال فيها أوضاع شائنة لهم، تم تصويرها والاحتفاظ بها تحت إدارته، حينما جد الجد أخذت هي هذه التسجيلات، نسخت منها عدة نسخ، أعطت أخاها إحداها وطلبت منه السفر في اليوم التالي الذي تم فيه القبض عليَّ، وأمرته أن يخفي التسجيلات في مكان آمن بعيدًا عن أي يد مهما تكن مهارتها في البحث، وحين تعالت الأصوات المطالبة بمحاكمتها بتهمة المشاركة في الفساد، ورأت الاتجاه يسير إلى هذا بعثت من يخبر المسئولين المتورطين بما لديها وبما سوف يحدث في حالة القبض عليها، وبأسرع مما يتصور أي عقل، وكيف أن هذه التسجيلات قد تم عمل نسخ عديدة لها وسوف تذهب كل منها إلى صحيفة من الصحف الكبرى التي تتمنى الوقوع على كنز مثلها لتنشره على العالم، طلبوا منها نسخة للتيقن مما تقول، وحين اطَّلعوا عليها تغير كل شيء.

هنا أدركتُ لماذا نقلوني إلى هنا.

قلتُ لنفسي لحظتها: فاز مكر المرأة على اندفاع القطط وشططها، وفكرتُ في القطط برثاء!

ليلى وحمارها الكبير

الشيء الذي يسعدني ويدخل السرور إلى قلبي ضحكات ليلى حفيدتي ابنة سعاد، أشعر وهي تدور حولي أن الأمطار تمطر بهجة ونورًا ومرحًا، وأن الغضب يتلاشى، والأتراح تزول، وغيوم النكد تنمحي، ولا يبقى إلا هي بضحكاتها التي يتسع لها براح عمري وفضاءات إحساسي، فأفتحُ قلبي وأضحك بملء وجداني وأنا أرى أشجار حياتي المجدبة تورق وتثمر، وطيور سعادتي العرجاء الخرساء تنطلق وتغرد، تملأ الكون بأناشيد الحياة، وتزف إلى الطبيعة روح الربيع، العب وتلعب معي لعبة الحمار، أشعر بفخر شديد وهي تمتطي ظهري قائلة بصوتها المغرد في سماوات روحي:

- تحرك يا حمار.

فأتحرك رافعًا ساقي قليلًا قبل الانطلاق، فتتماسك بصعوبة وهي مُغرَقة في الضحك، صارخة بمرحٍ:

- ستوقعني يا حمار.

تصرخ حفصة معترضة:

- كيف تقبل هذا؟

أشرح لها مرارًا وتكرارًا مميزات الحمير وذكاءهم وقدرتهم اللامحدودة على التحمل والصبر بلا كلل ولا ضيق وكأن الصبر قد خُلق لأجلهم، والجلد قد صيغ ليميز حياتهم، وأتركها إلى ليلى أضاحكها سعيدًا بضحكاتها، وأحزن حين يغلبها البكاء، أراها فراشة أرقُّ من أن تبكي أو تلوح على سيماها بوادر ضيق، أراني لحظتها أترك ما لديَّ مهما يكن وأنتبُه لها، أضمُّها بين جناحي مترفقًا بنقاء نفسها وشفافية روحها، وألبى طلبها مهما يكن، وبطبيعة الحال هذا لا يعجب سعاد ابنتي التي تزمجر كالمعتاد صارخة:

- الدلع الزائد سيفسدها.

فأبدي غضبًا رقيقًا وأنا أجيبها:

- دعيها تأخذ حظَّها منه، كما أخذتِ أنتِ.

تلوى زاوية فمها بحذرٍ حتى لا ألمحها وهي تتمتم:

- وهل مثلي عرفت طيف الدلع من قبل؟

ولا أبالي بالرد متظاهرًا أن حروفها الجاحدة لم تصل إليَّ، فهي هكذا منذ صغرها تطلب كل شيء ولا تتورع عن سلب حق من حولها بالقوة أو البكاء والتوسُّل وبعدها تقول في براءة النسيم العليل:

- الكل أخذ حقه ألا أنا، لم آخذ شيئًا.

وقد حاولت كثيرًا تقويم هذه الصفة فيها، دون جدوى، والسبب في كل الحالات حفصة أمها فهي دومًا كانت تعطيها بصفتها المقربة إليها أكثر من أخيها قائلة:

-إن البنت شقيقة أمها وخزينة أسرارها.

وأصرخ طالبًا المساواة، فلا يكون الرد إلا:

- تربية الأبناء اختصاصي أنا، وأنا أدرى بما أفعل، ابتعد أنت بعقدك الذكورية الحمقاء.

وأبتعدُ مرغمًا، فكل ما أضيق به في الكون هو لسانها الذي لا يرحم ولا يُهدِّئ من شطحاته، وقدرتها الفائقة على قلب الحقائق لصالحها مهما تكن الأمور واضحة جلية لا تحتاج لتأويل، وتلك صفة أخرى ورثتها سعاد منها، وربما لا أكذب إذا قلت إنها تفوقت فيها، فلسانها المسنون دومًا والكثير الخشونة يلسع بلا رفق ولا هوادة، للدرجة التي صار فيها زوجها عادل نسخة مني، يتحاشى مرغمًا الدخول في شجار معها، وإن كان هو قد تميز بالقدرة على ضبط لسانه فلم يتحرش بها يوما قط، أما أنا فحينما يفيض بي الكيل أندفعُ صارخًا فيها لاعنًا لسانها وحِدَّته ومنطقها وشطحاته وليكن ما يكون.

يومًا لم أرَ ليلى صباحًا، أرسلت في طلبها، جاءت أمُّها محمرة العينين:

- ما بك؟

- ليلى لم تنم طوال الليل.

- كيف؟

- حرارتها عالية ورغم الكمادات لم تنخفض.

- ولماذا لم توقظيني؟

ولم أنتظر الرد، استدعيتُ الطبيب فورًا، البنت أرق من أن يصيبها المرض، لن يجد في جسدها مجالًا لهزال أكثر مما هي فيه، ولن يجد في روحها طاقة لتحمل، كذلك عيناها أجمل من أن تتأوَّها وتذبل نظراتهما من أثر المرض.

ألغيتُ مواعيدي ومقابلاتي واتجهتُ إلى فراشها فورًا، رافقتُ الطبيب في الكشف عليها، أكمل عمله هادئًا وحينما انتهى استدار إليَّ:

- أرى أنك المريض وليست هي.

- كيف؟

- وجهك وعيناك ينم كل منهما عنك.

- أنت لا تعرف معنى وجودها بحياتي

واستدرت محاولًا إخفاء دمعة حمقاء أرادت الإفلات من أسر عينيَّ.

المؤامرة

كم هو رائع أن تجلس وحيدًا هكذا فتتسع لك الدنيا، وتجد أمامك براح الذكريات فتهرول فيه ما وسعتك الهرولة دون عائق وبلا أي حساسيات ماضية أو حتى حاضرة، تبصر عيناك الأشياء والأماكن والأحداث من جديد بنظرة مختلفة عن ذي قبل، وربما رأيتَ ما لم تره أو حتى تتوقع رؤيته، وتبصر ما لم تبصره قبلًا، وتنفتح لك مغاليق أشياء كانت مبهمة من قبل.

مسكين من اعتنق الفراغ ولم يستفد منه.

أروعُ ما في الوجود أن تجد نفسك في فراغ داهم فتملؤه بكنوز الذكريات.

أمسِكُ القلم، يَثِبُ من يدي محتضنًا السطور راغبًا عن السكون الذي أجبرته عليه في لحظات شرودي. أعاود الكتابة ببطء ودون إسراع فالوقت قد استطال، لا أدري إلى متى..!

في بداية رحلتي إلى شرق البلاد ركبت العربة المزينة بالأعلام، تاركًا للحرس والمرافقين العربات الأخرى تسير حولي في موكبي المعتاد، مُيمِّمًا وجهي ناحية الطريق البحري الذي يعتبر أقصر الطرق بيننا وبين الشرق، الطريق البحري لأنه مقصد السياح والزائرين من داخل البلد وخارجها يتم الاهتمام به، تتم رعايته وتزيينه وإنارة أعمدته ورصف طريقه ونشر الأعلام على طول مساره، لذا أختارُه دومًا كلما قصدتُ المشرق.

في منتصف المسافة وطلبًا للراحة من طول الطريق ولجنا إحدى الاستراحات قاصدين أن نمكث فيها قليلًا قبل أن نكمل السير، جاءنى كبير الحرس جبران طالبًا لقائي فورًا.

- أرى أن تركب عربة أخرى وتترك العربة الرئيسية.

- لماذا؟

- تأمين للموكب ولك شخصيًّا.

- ممن؟

- من مؤامرة لم نمسك بخيوطها بعد، ولم نصل إلى تفاصيلها، ولكن لدينا خطوط طويله تبين وجود شيء ما يدبر بالخفاء.

- وطبعا أركب عربة أخرى بدون إعلان لأحد.

- بدون إعلان حتى لأعضاء الركب والمرافقين.

وافقت على اقتراحه وقررت تنفيذ ما يريد، جاءنى قائد المخابرات المندوه يهمس:

- هناك مؤامرة تُحاك ضدك.

- كيف؟

- سيطلب منك قائد الحرس جبران أن تركب عربة أخرى غير عربتك الرسمية ليسهل على المتآمرين خطفها، وترك الموكب الرسمي يسير دونك دون أن ينتبه أحد فترة من الوقت تكفي لإخفائك تمامًا، والاستيلاء على الحكم.

سألته:

- وماذا ترى؟

- في أخر لحظة تصطحب جبران معك، ولا تترك السيارة الرئيسية، وسوف نراقب العربة التي اقترح عليك كبير الحرس ركوبها وسوف ترى بنفسك.

شكرته وقررت تنفيذ ما أشار به عليَّ.

جاءني قائد الشرطة الصاوي:

- مؤامرة تُحاك بالخفاء.

- ما هي؟

- سيجيء قائد الحراس جبران ناصحًا لتركب عربة أخرى غير العربة الرئيسية.

- ثم؟

- سيجيء قائد المخابرات المندوه طالبًا ألا تترك عربتك وأن تصحب جبران في عربتك.

- ثم؟

- كل هذا تمويه لإبعادك عن المؤامرة الرئيسية.

- ما هي؟

- الهدف تشتيت أفكارك وبث الخوف في قلبك قبل تنفيذ المؤامرة.

- كيف؟

- تم شقُّ نفق بجوار الطريق الرئيسي على بعد قريب من هنا، سيتجه إليه الركب، وهذا النفق يؤدى إلى قصر مهجور سيتم احتجازك فيه، وإعلان موتك، وتنصيب أحد المتآمرين مكانك.

- وماذا ترى؟

- تطلب من أحد الخدم بالاستراحة هنا وهو قريب الشبه بك ويُدعى سالم، أن يأخذ مكانك ويركب العربة الرئيسية وحده حتى لا ينكشف أمره، وعندها سوف تفشل المؤامرة و..!

وافقته على ما يريد وقررت تنفيذ خطته.

غادر المكان مطمئنًا إلى وعدي له.

جلستُ وحيدًا أنظر في أمر هؤلاء القوم وما يريدون، وأبحثُ عمن قد يكون صادقًا فيهم ومن هم الكاذبون، أخذني الفكر محلقًا في أجواء ما جرى في صباي البعيد، رحلة لم أحلم بها في أشد لحظات حياتي إشراقًا، فقد كنتُ أسيرُ ليلًا في قلب الحارة عائدًا من عملي في ورشة السباكة عند المعلم رمضان، فقد كنتُ في الإجازة الصيفية مثل كل صبيان حارتنا يأخذني أبي إلى إحدى الورش المنتشرة هناك لكي أعمل بها نظير أجر لا يكاد يُذكر كل أسبوع، مرة أعمل في بوفيه خاص بشركة كبيرة، وأخرى أعمل في محل طلاء للذهب، وغيره كثير حسب الأماكن الخالية والتي تسمح لغلام لم يشب عن الطوق بعد بالعمل بها بدلًا من قضاء الوقت كما كان يقول أبي رحمه الله فيما لا يفيد.

في تلك الليلة بالذات وأنا عائد من العمل ليلًا وسط الظلمة المهيمنة على الطريق نظرًا لانقطاع الكهرباء سمعت همهمة بجواري وصوتًا يشبه مواء قطة تستغيث، ارتجفتْ روحي ارتجافة موت، وتجمدت الدماء في سائر جسدي، ورأيتُني خشبةً صماء تسير بفعل خارجي عنها تمامًا، لا تمتلك الهرولة لشدة رعبها، وفي ذات الوقت لا تستطيع التوقف لخوفها مما قد يلحق بها إذا توقفت، أخذت ألملم ما حفظته طوال حياتي من القرآن وأحاول تلاوته، زاد صوت المواء ارتفاعًا، وأعقبه صوت عواء كلب غاضب يرسل صوته في قوة من

يبحث عن فريسة ما، وهو يزوم ويقترب من المكان، مما اضطرني تحت تأثير الخوف والرعب أن أفكر بالجري مبتعدًا، حاولتُ هذا، أسرعت خطوات لملاحقتي، وارتفع المواء أكثر وزاد العواء ارتفاعًا وشعرت بشيء ما يلامس قدمي، مما أجبرني على الهرولة بأقصى ما استطعت من قوة وقلبي يدق بكل الهول الذي يملؤه، وأنفاسي تتوالى واجفة، وعيناي لا تريان إلا الظلمة، شعرت لحظتها أنني أجري و شيء ما يجري معي، ربما القطة أو الكلب أو كليهما، ووسط هذا رأيتُني أتعثر، لا أدري كيف، وأرتمي على وجهي وصوت الارتطام يتوافق وينسجم مع آهة في أعماقي لم أستطع لشدة رعبي إعلانها، في تلك اللحظة أحسستُ بشيء ناعم يندفع لأحضاني، يلوذ بصدري، يلتصق بقوة، أصابني الهلع أكثر، حاولتُ أن أمدَّ يدي لأنتزعه وأبعده عني، لم أجد يدي، أو وجدتهما مشلولتين لا تتحركان وأنفاسي تصرخ ملتاعة متعثرة في رعبها، وعلى البعد صوت العواء لا ينقطع، وحركة الأقدام لا تتوقف، انكمشت مكاني ويداي مشلولتان عن التصرف أو حتى إزاحة هذا الجسد الغريب عن صدري، وقدماي عاجزتان عن مجرد التفكير في الهرولة لمواصلة الهرب، شعرت بأنفاس حارة تتدفق من هذا الجسد المجهول، وارتعاشة تشمله دون أن يبدو عليه أنه يفكر في إيذائي أو إلحاق الضرر بي، ساد سكون لحظي أعقبه ابتعاد صوت العواء ورويدًا عاد لجسدينا أنا وهذا الكائن المجهول الذي يلوذ بصدري بعض الهدوء، وعلى ضوء شعاع أطل من عقب أحد النوافذ تنبهت لعيني ذات القطة السمراء الخضراوين تحدقان في عيني شاكرة، وسمعتها تهمس لي بالعرفان، لا

أفهم حتى الآن كيف فهمتها ثانية، وهل تكلمت لغتي أم أنا فهمت لغتها، كل ما أذكره أنها شكرتني لإنقاذها من هذا الكلب المجهول، ونظرًا لحداثة سني وقتها لم أدرك ماذا ولا كيف ولا ما الذي فعلته لإنقاذها، حدقت إلى عينيها بنظرات متسائلة مغسولة بماء الذهول وهي تقول في شكر جزيل:

- أنقذتني للمرة الثانية، سأردُّ لك الجميل مضاعفًا، تستطيع من الآن أن تتحول إلى أي شيء كان، لكن حذارِ من ضوء القمر فهو سيكشف صورتك الحقيقية مهما تتخفَّى.

وانفلتت مولية الى حيث اختفت عن عيني فلم أعد أرها، ولم أدرك حتى ماذا قصدت بكلامها إلا بعد حين، وللحقيقة فقد شعرتُ أن جميلها قد طوق عنقي ووهب لحياتي القادمة سلاحًا يفوق ما عداه.

انتبهتُ من شرودي على صوت امرأة تطلب الإذن بالمثول بين يديَّ، عرفت فيها إحدى المشرفات، رأيتها تتعدى المكان المخصص لها مقتربة من مكاني محتجة بتغيير بعض المفروشات، هامسة أن لديها ما تريد قوله لي، أشرتُ إليها بالاقتراب أكثر، بدا شبابها نضرًا ذا ملامح سابحة في الحسن، بعينين حوراوين، صريحة البيان، ذات نظرات مقتحمة شديدة الجاذبية تفيض بسحرها حيث تكون، ولأنني أقدر الجمال حيث كان فقد رأيتها جديرة بأن تنفرد بي وتحدثني كيفما شاءت.

- القوم يأتمرون بك

- أي قوم؟

- المنوط بهم حمايتك؟

- كلهم؟

- تستطيع أن ترى بعينيك ما يدبرون.

- كيف؟

- تعالَ معي ولا تُشعرنَّ بك أحدًا.

- ومن يضمن لي أنك صادقة؟

- استفتِ قلبك.

استفتيتُ قلبي كما تريد فرأيته يطالبني وبإلحاح أن أذهب معها وليكن ما يكون، قائلًا إن الموت على يد حسناء أروع وأرق وأكثر شاعرية من الموت بين يدي وجوه كالحة وعيون مسننة النظرات نارية الأحداق، تنكرتُ قدر المستطاع وانطلقتُ من الاستراحة معها من الباب الخلفي دون أن يشعر بي أحد.

من مدقٍّ ترابي صغير خلف الاستراحة انطلقنا مُترجِّلين إلى حيث انحدرنا إلى واحة صغيرة بها بعض أشجار النخيل التي تتلقى ضوء البدر حين يظفر بالإفلات من أسر الغيوم فتنثرها منمقة بظلالٍ سمراء تستلقي في أحضان الرمال بنشوة وحبور، تتوسطها عين ماء صغيرة، حولها بعض الخيام المنتشرة خلف أشجار النخيل، سألتها:

- إلى أين؟

- ستراهم بعينيك وهم مجتمعون، وتسمع كلماتهم بنفسك.

انطلقتُ معها إلى حيث رأيتُ العتمة تنبت أجسادًا، الأجساد على الضوء الشحيح تسفر عن بعض الأعراب، أحاطوا بنا بمجرد اقترابنا من خيامهم، بيدهم خناجر صغيرة وفي أعينهم شَرٌّ كثير، أشارت لهم نحوى قائلة:

- ها هو كما وعدتكم.

ألقى إليها أحدهم صُرَّةَ نقودٍ، وصرفها بإشارة من يده، ورأيتُني أتكوَّر حول نفسي وقيود من الحبال تربط رأسي ورقبتي بقدمي ويُلقى بي أسفل إحدى النخلات في هدوء، وبإتقان تامٍّ كأنما قد تدربوا كثيرًا على الأمر من قبل، الشيء الذي أراحني قليلًا هو أن عينيَّ كانتا مطلقتين تريان من مكاني هذا ما يُدبِّرون.

رأيتُ مقاعد تمتدُّ في نصف دائرة من حولي في ساحة خالية وسط أشجار النخيل، وأمامي مباشرة ترتفع أعمدة خشبية وتثبت في الأرض متقاطعة، ومن أعلاها تهبطُ مشنقة ذات حبل من جريد النخيل أيضًا، وفهمتُ أنها ستكون محاكمة سريعة يعقبها تنفيذُ الحكم بالإعدام شنقًا. غيَّرتُ ملامحي فورًا إلى ملامح قريبة لي، مع بعض الاختلافات الظاهرة التي توحي لمن يراني أني لست المقصود بهذا الاعتقال وتلك المحاكمة، ودعوت الله أن يرسل الغيوم كثيفة لتغطي وجه القمر إلى حين انتهاء المحاكمة وإلا ضاع كل شيء.

بدأت مراسم المحاكمة فور وصول بعض الوجوه الحادة المسننة النظرات، عرفت أحدهم فورًا وهو الشيخ صميدة كبير إحدى عشائر المنطقة، كان قد زارني في مقر الحكم يومًا متوسطًا لديَّ للعفو عن أحد فتيان عشيرته، ممتدحًا عدالتي ونزاهة حكمي ورؤيتي الثاقبة للأمور، متعهدًا بتقديم كل ألوان الدعم والتأييد وحاشدًا كل أبناء عشيرته لخدمة النظام.

أخذَ كُلٌّ منهم مكانه وتمَّ فكُّ القيود عن رقبتي، وإيقافي مربوط القدمين ويداي مقيدتان من الخلف، بينما الليل يبسط ظلمته على المكان، والقمر غافٍ خلف غمامة تأبى إلا تقييد ضياءه، وعلى ضوء المشاعل بدأت المحاكمة:

- ما اسمك؟
- سمعان
- كيف؟
- هكذا اسمي.
- ألستَ الحاكم؟
- نعم.
- ومَن تكون؟
- شبيه له، فهو يعرف أنه ربما تعرض للقتل في أي لحظة؛ لذا أعدَّ بعض الوجوه القريبة الشبه به لهذا الغرض.

- أنت تكذب.

- انظروا إلى ملامحي وتحققوا منها جيدًا، ويمكنكم التيقُّن من الأمر بطريقة أخرى.

- كيف؟

- باختطاف قائد المخابرات المندوه الذي يتولى الأمر، وسيقول كل شيء.

تم تسليط الأضواء على ملامحي كما قدرت، حدق الشيخ صميدة بنظرات كريهة في عينيَّ وعيناه تفيضان بحقد هائل لا حَدَّ له، وحين تأكدوا أنني لستُ هو قال صميدة حانقًا:

- في كل الأحوال أنت تساعد الظالم، ومصيرك القتل.

قلت بهدوء شديد:

- إذا كنت أساعده بإرادتي فأنا أستحقُّ القتل.

- ماذا تقصد؟

- تم اختطافي من بيتي، وعزلي عن أهلي وأسرتي، وأسري في منزل لا أبرحه، وتدريبي على تمثيل دور الحاكم..رغم كرهي له ولتمثيل دوره.

- وأين بيتك الذي أخذوك منه؟

- في حارة الطيبين المتفرعة من الشارع الكبير.

- هل لك أولاد؟

- ولدان وبنت لا يعرفون مصيري حتى الآن.

- وزوجتك؟

- لا أعرف عنها أكثر من أنها تعيش على راتب ضئيل يرسله الحاكم لها أول كل شهر.

- هل تدلُّنا على الحاكم؟

- الحاكم لم يأتِ معنا، لو وصلنا إلى مقرِّه يمكنني مساعدتكم في الوصول إليه.

- كيف؟

- أعرف بعض الرجال الذين يودون التخلُّص منه.

- كيف نثق بكلامك؟

- لأنني أكرهه مثلكم.

- وإذا صرفناك من هنا؟

- تكون مصلحتنا واحدة.

قال صميدة الأشد عبوسًا بينهم لآخر بجواره:

- فكُّوا قيوده وأكرموه.

تقدمتُ مُقدِّمًا آيات الشكر، وفي الوقت ذاته موثقًا العهد بيننا للإيقاع بالحاكم، سألني صميدة:

- هل تريد البقاء معنا إلى حين العودة إلى دار الحاكم؟

قلت بهدوء:

- لا أرى ذلك، حتى لا يُلقى أحد حبال الشَّكِّ حولي.

عاد الصوت الخشن يعلو محتكًا بطبقات الهواء شارخًا حدوده بقسوة:

- أوصلوه الى الاستراحة.

عادت الفتاة التي اقتادتني إلى الواحة لتعيدني من جديد إلى مكاني، عند الباب أرادت التراجع والتوغل في الظلمة بعيدًا عن الأعين، همستُ في أذنها بأني أريدُ مكافأتَها على شجاعتها، وبدأتُ في مغازلتها، والتلويح لها بقدرتي على إعطائها مزيدًا من المال إذا هي قَبِلَت الدخول معي لبعض الوقت، تنمرت لي وأخرجت فورًا من طيات ثيابها خنجرًا مسنونًا هددتني به، وهي تتقهقر متراجعة إلى حيث ابتلعتها الظلمات!

عدتُ إلى مرقدي شاكرًا للغمام منحته وللقمر هدوءه وعقلانيَّته، باحثًا عن لحظات صمت أعيد فيها ترتيب الأمور كما ينبغي لي، تذكرت المؤامرة الغريبة الضاربة بأذيالها الحمقاء في كل ركن حولي، تدبُّر الأمر ليس بالأمر اليسير، ولكني أمتلكُ القدرة على البحث والتقصي بأسرع ما أستطيع، غيَّرت ملامحي فورًا إلى ملامح كبير الحرس جبران ومضيت إلى رئيس المخابرات المندوه الذي حدَّجني بنظرات ريبة كانت كافية لأدرك حقيقة العلاقة بين الرجلين، استدرتُ عائدًا إلى قائد الشرطة الصاوي الذي قابلني بترحاب كبير، وهمس في أذني ببعض الكلمات

التي أسعدتني كثيرًا، إذ كانت هي بنود الخطة المزمع تنفيذها للإيقاع بي بمجرد تحرك الموكب في طريقه إلى شرق البلاد. عدتُ إلى مضجعي باسمًا منشرح الصدر، وأغمضتُ عيني طلبًا للنوم.

تذكرتُ الفتاة التي تعمل مشرفة والتي من المؤكد عادت إلى مكان عملها قمتُ مسرعًا، أرسلتُ في طلب المشرفات جميعًا، ساد تذمر صامت بين الوجوه الناعسة، وكذلك تساؤل حائر عما وراء هذا الاستدعاء، ثم تخوف من حدوث خطأ يستوجب العقاب، ولكن لم يكن من تنفيذ الأمر بد، حضرن إليَّ، حددت الفتاة المطلوبة فورًا، أشرتُ إليها أن تقترب وصرفت الباقيات.

كان الوقت قد قارب على السحر وبدايات ظهور تباشير الضوء حينما خرجت من عندي باسمة الوجه منتشية الجسد، راضية القلب بالمال التي حملته والمضاجعة التي من المؤكد أسعدتها، وخلف الباب مباشرة وجدت رجال الشرطة في انتظارها للتحقيق معها بتهمة تدبير مؤامرة مع آخرين لقتل الحاكم!

وصودر المال الذي بحوزتها بعد توجيه اتهام جديد لها بسرقته!

قبل اشتعال السماء بوهج الضوء أتيت بنائب قائد الحرس حمدان الذي أثق به، أعلمتُه بترقيته إلى قائد للحرس وأمرته باعتقال رئيسه فورًا ، بعد إعطائي التمام بالاعتقال أمرته باعتقال قائد المخابرات، ثم قائد الشرطة، وعينتُ مكانهم من أثق بهم، وحينها كان النهار قد بسط خيمته على الكون، استأنف الموكب السير متجهًا إلى شرق البلاد!

الصفقة

قلتُ للسيد حاكم شرق البلاد الذي قمتُ بتعيينه إرضاءً لأنصاره وأبناء عمومته ليس أكثر:

- إننا معًا على الدرب، خطانا متوافقة، متلازمة، وعيوننا تصبُّ نظراتها على ذات الهدف مهما تبتعد به الأماكن، ومهما تنأَ به الظروف.

مددتُ يدي مشيرًا إلى مائدة الطعام العامرة، متحدثًا في ذات الوقت عن ناس البلد، وحاجاتهم إلى من يهتم بهم دون أن يتردى إلى هاوية البُخل والشُّح أو الأكل دون مراعاة ظروفهم، قائلًا ومؤكدًا:

- إن الرجل الحر هو من يأكل، وفي الوقت ذاته لا ينسى الجائعين، فإطعامه لهم فرض عليه، ليس لشيء سوى أن إطعامهم سيقيه شَرَّ الفوضى والغوغائية التي يمكن أن تحدث نتيجة شغبهم، ورفضهم

الجوع المستمر والدائم، فالجوع المتقطع الذي يعطى ولا يشبع، ويمنح ولا يمنع هو الجوع الأمثل لمثل هذا الشعب.

صمتت قليلًا وأنا أحدق إلى بؤبؤ عينيه باحثًا عن أثر كلماتي على عقله إذا كان يعقل، ثم أكملتُ:

- إياك أن تُصرَّ على تجويعه تمامًا، فساعتها سينقلب عليك، متهمًا إياك بالأنانية وحُبِّ الذات، وتفضيل نفسك ومن معك عليهم.

هَزَّ رأسه موافقًا فاهتز كرشه معه، بينما عيناه تبوحان بما يدور في صدره من مشاعر وأحاسيس، عدتُ أكمل:

- وأيضا إشباع الشعب سيجعله ينقلب عليك، لأنه لا يجد ما يشغله ويأخذ وقته، فقد شبع وامتلأت معدته وأصبح الآن مهيَّأً للبحث في أمور كانت بعيدة عن تفكيره، وليس أسهل من الولوج إلى أمورك أنت كونك كبيرًا للبلد لكي يفتش فيها، وينقب في أسرارها باحثًا ومنقبًا عما يشين ويزري بك، وربما يقطع رقبتك، فخير لك أن تمسك بالعصا من المنتصف، لا تُشبِعه، وفي الوقت ذاته لا تتركه للجوع، اجعلها بين بين.

هَزَّ الرجل رأسه الكبير متفهمًا الأمر، مؤكدًا أن وقوع أمر الحكم في يد العامة خطر حقيقي لهذا السبب خاصةً، فهم لا يفقهون شيئًا من سياسة السلطة وقوانينها وحكمة إداراتها، ويظنون أن الأمر من السهولة إلى الدرجة التي متى أعلنت: (أن العدل هو السيد) ستصبح حاكمًا جيدًا، أو لو قلت: (المساواة بين الجميع) لأصبحتَ حاكما عظيمًا.

ابتلعَ قطعة كبيرة من اللحم أتبعها ببعض الماء ليسهل انزلاقها إلى المريء، قائلًا بحدة:

- كلا وألف كلا، الحاكم الحقيقي هو الذي يقول ويعرف كيف يسير أموره، قد يكون العدل أساس الملك، لكن في أحيان كثيرة لا بد من منح بعض المزايا لأشخاص بعينهم يعطون للدولة ما لا يعطيه الآخرون، هؤلاء لا بد أن يرتفعوا عن هذه المقولة، ويتفردوا بمزايا خاصة، ليس لأنهم مستغلون أو منتفعون أو حاشية سيئة تحمل الشر وتشير بالظلم ولا تعرف للعدل طريقًا، كلا بل هم مخلصون، قدموا عصارة فكرهم راضين، وبضمائر مستريحة، فعلى الحاكم أن يميزهم عن غيرهم.

رفع قطعة اللحم مشيرًا بها إلى وجهي، متسولًا موافقتي على كلامه، هززتُ رأسي في رفقٍ وأنا أرقبُ عُمقَ عينيه، أكمل:

- ثم المساواة! المساواة يا صديقي هي الظلم البَيِّن في هذه الدنيا، كيف أسوِّي بين اثنين يُعطي كُلٌّ منهما عكس الآخر أو أقل منه؟

المساواة الحقيقية هي أن ينال اثنان نفس الحق حينما يعطيان العمل نفسه، وإذا ميزتُ أحدهما عن الآخر في تلك الحالة أكون قد ظلمته. انظر مثلًا للأشغال في البلد اليوم، هناك أعمال متساوية في الجهد المبذول ورغم هذا متفاوتة في الأجر، إذا فكرتَ أن تُعيد للأمر عدالته فلا بد أن تأخذ من الأعلى لتُعطي الأقل أجرًا لتساوى بينهما، وحينها ستحترق البلد بالرفض والفوضى والصراخ بأن ظلمًا عظيمًا وقع عليهم، لذا تنظر إلى المتضررين الذين يطالبون بالمساواة وأنت لا تستطيع عمل شيء، لو

زِدتَ أجورَهم ستثقل كاهل البلد بالأجور الجديدة، ولـو أخـذتَ مـن الأعلى أجرًا ستقع الفتنة، ولو أعطيتَ المتضررين أملًا ومَنيتَهم بأحـسن الأماني عشت هادئًا ومنحت البلد استقراراً إلى أن تجد حَلًّا لهذا اللُّغـز، في رأيك لو قفز العامة إلى السلطة، هل يمتلكون الرؤية الصحيحة التـي عرضناها الآن؟

قلتُ مؤكدًا:

- كلا

في البيت الكبير على حافة البلـد حيـث الحـرس مزروعـون حـول الأسوار، بأجهزتهم وأسلحتهم وعيونهم المتربـصة بكـل مـن يفكـر أن يقترب من المكان كانت جلستي والرجل الهادئ العينين المكتظ بـاللحم بابتسامته الواثقة، وهو يتحدث إليَّ رغم مراعاته مركزي كـوني صـاحبًا للكرسي، شارحًا أبعاد الأمر كما ينبغي أن يكون، ففي حياتنـا تلـك لا بد أن يكون هناك الغني صاحب المال لكي يسود ويفرض إرادته، لـيس ظلمًا ولا عدوانًا على أحد ما، لكنها سُنة الحيـاة أن يوجـد مـن يـسوسها ويوجهها، ليس من فراغ ولا بسلطة رأس المال وحده، بل لأنه مؤهـل للقيادة، مؤهل أن يسود وأن يوجه وأن يحمل رايـة التقـدم والتغيـير إذا استلزم الأمر ذلك، هل ترى سفينة تسير وسـط المـوج بـبعض العـمال دون فرد واحد يجمع الجهود ويوجهها إلى مصلحة واحدة هـي الحفـاظ على السفينة من الغرق، وفي ذات الوقـت توجيههـا إلى هـدفها بحرفيـة تمنعها من الشرود بعيدًا عن هدفها؟

لذلك يا صديقي تجد أن هؤلاء عددهم عادة يكون قليلًا، ليس لشيء سوى لأن لديهم منحة إلهية، هي قيادة الجموع، ولا يعقل طبعًا أن يكون عدد القواد كثير، أليس كذلك؟

قالها وهو يبتسم، ابتسامته ذات حدود وأبعاد كأنه يقيسها بمسطرة دقيقة الحساب، وكذلك نظرته المتعالية وجفونه المسترخية المنكسرة في عظمة كأنه يبخل عليَّ بنظرة كاملة فيكتفي بإلقاء نصف نظرة على وجهي، رغم محاولته إبداء تواضع كاذب في حضرتي كصاحب كرسي له تقديره، واحترامي فرض على الجميع بما فيهم هو حتى وإن كان كبير عائلته.

صحبته إلى الوليمة التي أعدها خصيصى لي وأنا أبحث عن مدخل جيد لعرض ما أريد. كنتُ واثقًا أنه يعرف مقصدي جيدًا، يعرف لماذا أتيتُ إليه، وأعرف أكثر أنه قد أعد قائمة بطلبات محددة للمساومة بها، فمثل هؤلاء لا يقدمون خدمات مجانية، ولا يعرفون كلمات في القاموس اللغوي لها دلالتها عند أولاد البلد مثل التضحية أو التيسير أو مراعاة الخواطر ، أو مثل هذا من مسميات، قل لي ماذا تريد وسوف أعرضه على مائدة المصلحة المشتركة، فإن صلح وكان له مقابلًا أو جانبًا بالنسبة لي فأهلًا به وسهلًا، وإلا فالموضوع منتهٍ، ولا يصلح أن يفتح مهما تكن الأسباب مرة أخرى.

ثم مهمٌّ جدًّا أن تعرف مع مَن تتعامل، وهل لديه القدرة على الوفاء بتعهداته والتزاماته أم لا.

كل هذا أعرفه عنه، وعنهم جميعًا.

لذا قدرتُ الأمر جيدًا وأعددتُ له عُدته.

أولًا لأفرض عليه الالتزام بما أريد.

ثانيا لا مانع أبدًا أن أتعهد له ببعض المميزات نظير خدماته التي أطلبها منه، شرط أن يطلبها هو ويُلحُّ عليها.

وأُبدي الامتعاض قليلًا أو التردد.

وأسأل بعض الأسئلة التي تشي بخشيتي من ظلم أطراف أخرى إذا وافقت على منحه ما يريد.

قدمت ولدي مسعود إلى مائدة الطعام ليكون بجواري، الولد يحمل نظرات بلهاء تشي بما في داخل دماغه الصغير من فراغ، يتحدث همسًا كأنه يخشى من شيء ما، حركاته مغلَّفة بخجل طفولي لا معنى له، يهتم كثيرًا بشعره، ويخشى كل الخشية أن تهتز شعرة منه وتتحرك عن مكانها الذي ثبتها فيه، وكلما رأى مرآة يحدق إليها غامسًا نظراته في بؤبؤ عينيها، متسائلًا على ما يبدو كيف حال شكله الآن، وكيف ينظر الخلق إليه، الغريب أنه مع كل هذا يمارس العناد بحرفة ودراية عالية ولا يتنازل أبدًا إلا بعد التهديد والوعيد الحارق أو دموع أمه ونشيجها، وقد استعصى على المدربين وإدارة البروتوكل في القصر، ويتلاعب بهم مراوغًا ليحول بينهم وبين تلقينه ما يجب أن يتعلمه لتحسين صورته أمام العامة، وتحسين صورتنا معه كأهل واجبهم تربيته التربية

الصالحة.. دفعته بيدي ليجلس إلى يميني على رأس مائدة الطعام، واحتفيتُ بمضيفي واثقًا أنه يفهم جيدًا إشارتي ويستعدُّ لبدء المباراة.

- مرحبًا برجلنا القادم.

قالها ملقيًا ببسمته المرسومة على اتساع قسماته الرخوة على وجه مسعود الذي أحنى رأسه متمتمًا بكلمات مدغومة لا معنى لها. سارعت بالرد:

- المهم أن يعرف كيف يقود السفينة بمهارة وحذق.

مشيرًا بطبيعة الحال إلى مراعاته لهم ولكي أطمئنه على مصالحه. التقط الإشارة بذكاء هذه المرة.

- هذا مفروغ منه، وإلا ما استحقَّ أن يكون شبلًا في بيت الأسود

تبسمت للمجاملة ودخلت في الموضوع مباشرة:

- المهم أن تكون النمور بجواره.

ارتفعت ضحكته:

- نمور مرة واحدة؟

- تلك حقيقة.

- بالنسبة للنمور فهي قلبًا وقالبًا معه، مصلحة البلد هدفنا جميعًا ولذلك لن نختلف أبدًا.

هززتُ رأسي مُؤمِّنًا على كلامه:

- هذا حقيقي.

- التعاون بيننا دومًا ستكون له ثماره التي تصل للجميع.

وصلتني الإشارة واضحة جلية وهو ما استعددتُ له جيدًا. قلت:

- التعاون لن ينقطع يومًا، خاصة مع عقول لها خصوصيتها، وجديرة بالتقدير.

وانتقلت مباشرة إلى قلب الهدف:

- لا أعرف لماذا أخشى أن أرشحه للكرسي.

اتسعت ابتسامته بمقدار يشي بما لديه، وكأنه يقول لي أفهم ما ترمي إليه، المهم ما هي تعهداته والتزامه معنا.

وقال متحمسًا:

- لا تخشَ شيئًا فنحن كلنا معه.

أرخيتُ ظهري على ظهر المقعد وصببتُ نظراتي في بؤبؤ عينيه واثقًا أننا سنبدأ المساومة فورًا، قضم قضمة من اللحم المشوي الذي أُعِدَّ خصيصى لهذه المناسبة. قال:

- أنت تعرف المشروعات المنتشرة في البلد وحاجتنا إلى يد قوية ترعاها لصالح الناس والمجتمع.

قلت وأنا أعالج قطعة لحم حمراء شهية المنظر، رأيتها تدعوني لقضمها فلم أتردد، رغم امتلاء معدتي:

- ما دامت المصلحة واحدة والهدف رعاية صالح الناس والمجتمع فحماية هذه المشاريع واجبنا.

وقبلت دعوته لتناول الشاي في الردهة الكبيرة في بيته الكبير على حافة البلد، تلك الردهة المطلة على حديقة المنزل بأشجارها وثمارها وهوائها الذي يملأ الروح بالهدوء والدعة.. الرياض في كل مكان تشدُّ الروح، تنعم بينها بصفاء النفس وسكينة الفؤاد، وتفلت من أكدار الكون من حولك، تنظر إلى العصافير وهي تغدو سابحة في فضائها بلا قيود ولا عقبات، تختار الفرع الذي تريد، متى أرادت، وتختار الوليف الذي تهفو له صدورها بلا خوف غدر ولا مظنة سوء، بينما الزهور تنعم بقبلات النسيم وعناقه الودود وتهتزُّ طربًا للمسات الحنان من يديه، والنجيل الرائق الخضرة على الأرض وهو يتقبل وطء قدميك على صدره بفرح وسرور متمايلًا رقاصًا لا يعرف ألمًا ولا شقاءً.. حدق الرجل إلى المكان حوله بنصف عين من جديد، ربما لانشغاله بأمور كثيرة يبحث كيف يناقشها معي، أخذته إلى مواضيع شتى، وحين قمتُ معلنًا الشكر والتقدير لاستضافتي في بيته قال بذات ابتسامته المرسومة الواثقة وهو يُشير إلى ولدي مؤكدًا:

-افعلْ ما تراهُ، ونحن معك.

وهذا ما كنتَ أريد!

الحل

اكتشفتُ الحقيقة التي كان لا بد أن أكتشفها يومًا.

تلك الحقيقة التي كانت تتوارى خجلة خلف الستار، لتفسح الطريق عادة للتقارير المتأنقة المعطرة المكتوبة ببلاغة العبارات وبديع الصور، تلك التقارير التي تتحدث عن قلوب الناس في الشوارع والحارات التي تخفق من أجلي، وتصور أن عقولهم تسير وراء عقلي باقتناع كامل ورضا تامين، وتصف كيف يروننني النبراس الذين عليهم أن يمضوا خلفه راضين مطمئنين، ويروننني الراية الخفَّاقة التي تحقق طموحاتهم، والروح الملهمة التي تعلو الأرواح بسموقها وشفافيتها وبديع نقائها، وبطبيعة الحال كنتُ أقرأُ أنا هذه الملفات والتقارير، وأسمع لكل هذه الترهات والتوافه منتفخ الأوداج، هائمًا في براح غرور لا معنى له، أعيش حياة أخرى بعيدة كل البعد عن واقع لا أراه، ولا

أحلم بالخوض في غماره نظرًا لإغلاقي أبوابي وأسواري على خيالاتي وأوهامي، مبتعدًا عن الحقيقة التائهة الباكية المغلوبة على أمرها التي أنأى عنها، وهي لا تملك إلا التواري خلف ستار النسيان، منتظرة فرصة لا تجيء للوثوب إلى عيني وإزاحة الغشاوة عنهما.

رأيتُ حينما طردتُ عني الخمول من أجل ولدي ومن أجل اعتلائه الكرسي بعدى الوجوه كما يجب أن أراها، اقتربت من الملامح الحقيقية بعيدًا عن الأقنعة، وبعيدًا عن مسوح النفاق وتراتيل الكذب والبهتان، شممتُ روائح الغدر، وذقت طعم الكراهية، وغُصتُ لعنقي في المؤامرات التي تُحاك ضدي، ورغم هذا لم أستسلم لفكرة الكراهية لمجرد الكره، فليس هناك كُره بلا سبب، كما أنه ليس هناك حبٌّ بلا سبب، الأرواح جنود مجندة، هذا حقيقي ولكن الربَّ سبحانه يُسبِّب الأسباب .

لذا كان عليَّ للوصول إلى كُنه الأمر أن أعاود الوثوب للموضوع من جهة أخرى، وهي معرفة السبب الذي من أجله تحوّل الناس من مؤيد وراضٍ الى كارهٍ وحاقد.

تابعتُ التحقيقات بنفسي، وحضرتُ بعضها متسترًا بستار الصمت لأرى بعقلي قبل عيني ما هناك، وليتني ما فعلت.

الحقيقة دومًا متعبة جدًّا.

تتعب صاحبها وتتعب من يبحث عنها، وتتعب من يتقصى أمرها ويطلب مصاحبتها.

لذا رأيتُني أصل إلى رأى واحد وأقتنع به. الناس معهم كل الحق في كراهيتي، معهم كل الحق في الحنق عليَّ ورفض اعتلائي للكرسي، بل رفض الكرسي نفسه الذي يأتيهم بوجوه مثلى لا تريد إلا مصلحتها الشخصية بعيدًا عن مصالحهم وأهدافهم.

وكان السؤال التالي الذي جابهني هو: وما الحل؟

وكان الرد المفترض في تلك الظروف أن أسعى لتصحيح الأوضاع فورًا.

لذا قررتُ بناء مسجد جامع يسع الجميع، يجتمع فيه الخلق ويتقربون إلى الله ويدعونه من أجلي، فحين يرونني أبني مسجدًا جامعًا سامق البُنيان هائل المساحة سيعرفون أن بقلبي خيرًا، ولست كما يقول المغرضون بلا قلب، أسعى لمصالحي ومصالح ولدي من بعدي، ولا أنظر لمصالحهم أبدًا، هأنذا أنظر وأُدقِّقُ وبعد مزيد التفكير أعمل من أجلهم، من أجل اقترابهم من الله وتواصلهم معه، وهذا سيمنح الوطن بركة، والمواطنين رضاءً وراحة بال، فالصلاة للمصلى بركة وهدوء ورضاء وراحة بال، ومن يتقرب لله بالصلاة يحفظه سبحانه، وما دام الجميع سيصلي فسوف يحفظهم الله، وبالتالي سيحفظ البلد وأنا معها.

أمرتُ فورًا باختيار قطعة أرض في مكان يتوسط العاصمة لبناء المسجد الجامع، ذهب الخبراء وبحثوا ونقبوا وتدارسوا خرائطهم، وجاؤوا ساعين ليعرضوا عليَّ ما توصلوا إليه، وضعوا الخرائط أمامي وأشاروا إلى قطعة أرض في القلب تمامًا من العاصمة، قالوا:

- إنها عشوائيات يا فندم.

- وسكانها؟

- أناس لا صفة لهم.

- كيف؟

- حياتهم فوضى، ومشكلاتهم أكبر بكثير مما نرى ونعرف.

- لكنهم مواطنون.

- يا فندم، معظمهم خارجون عن القانون، الحكومات المتوالية تركتهم مرارًا خوفًا من وصمها بالوحشية إذا تعاملت معهم بما يليق بهم.

استدعيتُ قائد الشرطة الرماح فورًا، سألته:

- ما رأيك فيما قاله الخبراء عن هؤلاء العشوائيين؟

- هم كما قيل عنهم.

- ولماذا لا تُجليهم من أماكنهم ما دامت تلك أماكن مميزة؟

- لن يذعنوا بسهولة.

- وأين دوركم كونكم رجال شرطة؟

- نحتاج إلى قوات ضخمة.

- هذا سهل.

- وأماكن إيواء جديدة لهم.

- ولماذا لا يبحثون لأنفسهم عن أماكن إيواء؟

- المشكلات والاضطرابات التي ستحدث قد تكون أكبر من أن نسيطر عليها

- ومساكن الإيواء هذه أين تكون؟

- هناك في الصحراء.

- أفضل، حتى لا نراهم في العاصمة.

- لكن هناك مشكلة.

- وما هي؟

- لا توجد هناك مرافق.

- انقلهم، وبعدها نبحث موضوع المرافق هذه.

- سيتذمرون.

- أنت هكذا تضغط لإنهاك الميزانية العامة للبلد.

- بل لبسط الأمن.

تدخل مساعده المجذوب طالبًا الإذن في عرض رأيه، أشرتُ إليه موافقًا، قال:

- أرى أن نجعل بناء المسجد الجامع مشروعًا قوميًّا، نهيئ له أذهان الناس، ونجعلهم يتحمسون له، ونقنعهم أن البلد كلها ستتقرب به إلى الله، ومن أجل التقرب إلى الله سنضحى جميعًا من أجل أن يقبلنا ويرضى عنا، فالحاكم سيضحى بالمال، والعمال بالبناء، وقاطنو الأرض سيضحون بأرضهم من أجل الله وليس من أجل أفراد.

تابعت عينا قائد الشرطة الرماح وهما تبرقان إعجابًا، وانتبهت له يكمل حديث الرجل منبهرًا بالفكرة التي عرضها:

- وطبعًا لن يستطيع أحد أن يعترض على التضحية بأرضه من أجل الله، وهكذا ننفذ ما نريد بسلام وأمن.

أشرتُ بالموافقة، وصرفت الجميع طالبًا منهم أن يتركوا الخرائط لأدرسها على مهل، وجلست أفكر تفكيرًا جديدًا وأنا أحدق إليها، وأدقق في مساحة الأرض التي ستخلو من ساكنيها وخاطرة تدور في رأسي.. لو قلَّصنا مساحة المسجد قليلًا جدًّا، وبنينا دائرة من المساكن حوله ذات مستوى عالٍ، وأجرناها بمبالغ ضخمة سنضرب عصفورين بحجر واحد، بنينا المسجد الجامع من ناحية، ومن ناحية أخرى أدخلنا إلى خزينة الدولة مزيدًا من الأموال.

عدتُ أطلب الخبراء للمناقشة!

شركة الأمناء

كان لا بد من البدء فورًا في الرحيل إلى الغرب، استكمال التفاهم والتعهدات ضروري جدًّا من أجل مسعود، الطريق وعر، صحراء قاحلة وصقيع يرمي سهامه الثلجية على الوجوه، وسحابات بيضاء يقتحم بياضها أخرى سوداء ممتدة تخترقها على مهل وتغوص فيها ملتهمة البياض على مهل وبلا تعجل، كأنما هي واثقة في نهاية الأمر من إتمام عملها، وذؤابات رمادية تبدو هنا وهناك راسمة نهايات متوافقة لحال لا يخفى على عين.

العربات ستأخذ وقتًا في السير، ستأخذ جهدًا، وربما أشياء أخرى في عالم الغيب، لكن لا بد مما ليس منه بد.

كالعادة تركت زوجتي خلفي، هي تحب هذا وأنا كذلك، عيناها تنضحان بما لديها، لا تخفيان ولا تملكان إخفاء ما يمور في صدرها من أحاسيس.

هي تبدي بكلماتها الجوفاء بعض الود، لكني لا أريد إلا ودًّا خالصًا ممزوجًا بنوع من الخضوع لا تملكه منذ عرفتها، هي ترى أنها تمتلك ما لا يملكه الآخرون، تبدى رأيها ومشورتها في كل الأمور حولها، وتدس أنفها في قوة وشراسة في أمور أبعد ما تكون عن مدار فهمها وإدراكها، ورغم هذا لا تتورع عن إلقاء الكلمات المتوثبة المتأججة ذات الحروف المسننة في الوجوه والآذان وهي تباهي الظلال والجدران بقدراتها وعقلها الراجح وفهمها الذي يسبق فهم الرجال.

الغريب في الأمر أنني أضطرُّ كثيرًا للإنصات إليها، ليس احتياجًا لأفكارها النيرة، ولا شغفًا بسماع صوتها، ولا حتى لنصاعة فكرها ونقاء حروفها، ليس كل هذا بطبيعة الحال، ولكن لأتلافى مشكلاتها وما يعتريها من ضيق إذا عارضتُها في شيء، وإصرارها على الكلام ساعاتٍ طوال من أجل أن تقنعني برؤيتها الصائبة التي لا تخيب، وفي تلك الحالة حينما تصطادني ساعات طوال وهي تصبُّ في أذني بإصرار وعناد كبيرين حروفها وكلماتها وعباراتها دون كلل أو إرهاق أجدني أمام أمرين، أما التحديق إلى عينيها وبقوة وأنا أقول:

- انتهى الكلام، افعلي ما بدا لك.

وفي تلك الحالة تقوم فورًا، تأمر بما تريد قائلة إنني قد وافقتُ رأيها، ويا ويل مَن يُعيد عليها الكلام، أو حتى يقف مترددًا لثوانٍ قبل أن يُهرع لتنفيذ أمرها! أما الحالة الثانية فهي أن أعطيها ظهري ونحن على السرير، لا أرد عليها، وفي تلك الحالة إما أن تشدني من ملابسي قائلة:

- أعرف أنك متيقظ، ولكنك لا تريد سماعي.

فأصرخ:

- دعيني أَنَمْ.

فتعرف أنه لا جدوى من كل ما فعلت، فتحتضن غيظها وكمدها وتستلقي إلى جواري بنيرانها المستعرة انتظارًا لقدوم الصباح لتستلم أذني من جديد، فأضطرُّ لحظتها إلى الصراخ فيها:

– لن أفعل ما تريدين.

وأنا أدرك جيدًا مغبة هذا القول ونتيجته المحتومة، إذ تنشب بيننا خصومة لا يعلم إلا الله كم تمتدُّ وكم تترك فينا من أثر، وكم تملأ البيت بالصراخ والكلمات الجارحة التي لا تهدأ، إلى أن يعود الصلح لينشر ضياءه حولنا، وبطبيعة الحال هي لا تصالح، ولا تُقدِمُ على صلح أبدًا، ولا تملك كلمات اعتذار ولا تعرفها، هي فقط إذا أرادت مصالحتي كلمتني كأن لم يحدث بيننا شيء، وأبادلها الكلام كأن شيئًا لم يكن، والويل لي كل الويل لو فكرت أن أصالحها قبل أن أرى على وجهها علامات بعينها تقول إنها جاهزة للصلح، فهي تظل متجهمة الوجه حادة النظرات ما دامت غير مستعدة للصلح، فإذا انفرجت سماتها وتلاشت التكشيرة ورقت النظرات فيمكنك لحظتها أن تكلمها وترد، ولكن إذا فكرتَ قبل هذا في عتاب فسوف تنال فيضًا من قسوة وعناد، وسهامًا نارية وحرابًا، وربما صواريخ قاتلة لا تعرف السِّلم أبدًا.

أمرتُ بمتابعة الحملة الإعلامية الكبرى من أجل بناء مسجد جامع تتقرب به بلدنا إلى الله، ويكون بمنزلة حصن للمؤمنين وملاذ للضعفاء والمهمشين، مسجد يجتمع فيه كل من يرفع راية التوحيد، وكل من يريد التواصل مع الله.

لكن جاءني من جديد أحد الوزراء باقتراح جديد:

- أرى أن يتم تقليص المساحة قليلًا جدًّا من أجل بناء دار للمسنين، فيها رعاية ورحمة ورفق بهؤلاء الذين قدموا لبلدهم الجهد والعرق والإخلاص والعمر، فلا أقل من أن نكافئهم بدار تليق بهم، فيها حدائق ورياض وكتب ومسرح وسينما وملاعب وقاعات مطالعة وكل ما تحتاجه من خدمات.

حدقت إلى عينيه اللوزيتين متابعًا باهتمام، حدقتاه تتدفقان بحماسة شديدة وتبديان إخلاصًا لا شك فيه، سألته:

- وما جدوى هذا المشروع؟ وما العائد منه؟

تألقت نظراته بلمعة السرور وهو يجيب من خلال بسمة تأكل فتحة فمه:

- طبعًا كل هذا بأجور زهيدة لا تكاد تكفي المصروفات التي تم ضخها للمشروع.

- والمسجد؟

- ستكون الحملة الإعلانية عن مسجد للتقرب لله، وفيه خدمات شتى من قاعات لشرح الآيات بأجور زهيدة، إلى قاعات للفقه، وأخرى للسنة النبوية، وثالثة للفقه المقارن بين الأديان، وهكذا يصير المسجد مكانًا عالميًّا يجتمع فيه أقطاب العلم، وإلى جواره دار المسنين، ويا حبذا لو جعلنا مكانًا صغيرًا جدًّا الى جوارهما ليكون دارًا للمناسبات بأجر زهيد أيضًا، ولو فكرنا في بناء جراج سيكون إضافة لها قيمتها!

سألته:

- وماذا يتبقى للمسجد من المساحة الكلية؟

قال وهو يبدى التواضع الجم والخشوع:

- المكان كله سيكون مسجدًا جامعًا، لأننا سنطلق عليه بيت الدين.

- هكذا؟

- نعم، وسوف يكون مزارًا على مستوى يليق ببلدنا، ويعرف العالم كله أن لدينا بيتًا للدين فيه كل ما يتمناه المرء وما يشعره بإنسانيته ورُقيّه.

- ألا ترى أن هذا سيكلف البلد أموالًا طائلة لتنفيذه؟

برقت عيناه اللوزيتان ببريق المكر وهو يرفع حدقتيه غارزًا أنياب نظراته في بؤبؤ عيني قائلًا:

- لن تتكلف البلد مليمًا واحدًا، سيقوم أحد المقاولين بالبناء نظير إدارة المكان مدة من الزمن، ثم يعود إلينا ملكًا خالصًا للبلد تنتفع به وبأرباحه.

- وكم تكون هذه المدة؟

- عشرين عامًا

- نعم؟!

- كثير؟

- جدًّا

- وماذا ترى حضرتك؟

- خمس سنوات لا غير.

تاهت عيناه في مدارات فكر جامح قبل أن يقول بثقة:

- لك ما تريد.

- من سيقوم بالمشروع؟

- شركة مقاولات خاصة تتميز بالإخلاص، وهي إسلامية ملتزمة ودقيقة في عملها ومواعيدها.

- ما اسمها؟

- الأمناء للمقاولات.

- اذهب الآن وانتظر مني الرد.

وطلبت معلومات عن هذه الشركة وأنا أتوقَّعُ شيئًا ما، وكان ما توقعتُه صحيحًا، فهي شركة يمتلكها أحد أبناء هذا الوزير، ومعه بطبيعة الحال أبناء وجهاء من البلد، مما أثار حفيظتي وغضبى بشدة، وجعلني أتساءل: لماذا لم يأخذ ابني معه في شركته؟!

طلبته من جديد وأعلمته بموافقتي على اقتراحه، على أن يأتيني بأوراق المشروع ودراسة جدوى كاملة أيضًا. بعدها أرسلتُ لولدي النائم في العسل مسعود ووجهت اليه تأنيبًا مؤلمًا على غفلته وكسله صارخًا فيه:

- تعّلَم من هؤلاء الذين يستغلون مراكزهم وجاههم من أجل منفعتهم، ومنفعة أهلهم، وبلادهم أيضًا، كفاك نومًا.

حدق بعينيه الواسعتين السوداوين اللتين تطلقان حدقتيهما تبرقان في وجهي دون أن ينطق بحرف، رمى بعدها نظراته الى الأرض ومضى في صمت إلى حيث يريد، تابعت كتفيه العريضين بهزالهما الواضح وهما تكادان تنطبقان على بعضهما البعض أو ترتميان أمامه وهو يمضى محنيًّا كأنما يبحث عن شيء وقع منه، متمتمًا كعادته بكلمات غضب لا تكاد تبين، سألت نفسي حينما أخفاه الباب عن ناظري..ما الذي يرضيه ويشد انتباهه ويجعله في صورة أرقى وافضل من هذه حتى يجبر الناس على قبوله والاعتراف به؟

كتبت في كراسة التعليمات الخاصة بي هذه الملحوظة حتى أتذكرها وأبحث مع المختصين طريقة لحلها، فهذه الكراسة تثِّل التذكرة كلما نسيت أمرًا، خاصة أنني أصبحت الآن كثير النسيان، هذا بالإضافة لأخرى صغيرة الحجم أضعها في جيبي أينما ذهبت، لأدوِّن فيها ملحوظات سريعة، أعود إليها بين الحين والحين.

لحظات وجاءني تقرير من أجهزة الرقابة يخبرني أن مسعود ولدي هذا الماجن الطائش قد أرسل إلى القائمين على شركة الأمناء للمقاولات التي ستقوم بالمشروع واشترط أن يكون شريكًا لهم بنسبة محددة وإلا سيتم إلغاء المشروع تمامًا، ومحاربتهم وربما طردهم من البلاد، وقد وافقوا مُرغمين.

كتبتُ في كراسة التعليمات نبذة عن هذا الأمر كي تقوم بتذكيري كي ألوم هذا الولد وأؤنِّبه وأعلمه رفضي لتصرفاته الرعناء هذه.

بعدها وضعتها في مكانها في درج المكتب راضي النفس، ومضيتُ لمتابعة بقية أعمالي في هدوء!

صديقة في فراشي

للطيور في سيرها الفضائي طقوس تشدُّني، الفضاء المفتوح لها دومًا يدفعني لتساؤل عن ماهية الصراع بينها، كيف يكون؟

هل النسور أو الصقور وما شابهها من الطيور الجارحة هي فقط مصدر الصراع، وعدا ذلك لا يوجد مصدر للخطر.

المخلوقات المتشابهة في القوة تتصارع فيما بينها على الأقل على الأرض، تجد ذلك في كل مكانًا يوجد فيه بنو البشر، وحين يرون من يفوقهم قوة يتملقونه، ويقدمون آيات النفاق بين يديه ليرضى عنهم ولا يؤذيهم،، وآيات النفاق من الكثرة بحيث لا تُعدُّ، ووسائلها عديدة وإن كانت لن تخرج عن المال والجنس، بمعنى أكثر أن حب الذات عند البعض على الأرض يدفعهم لتقديم كرامتهم قربانًا على مذبح سلامتهم أمام الأقوياء جسدًا أو جاهًا أو مركزًا أو من يعتلى الكرسي، أما

مشاعرهم الحقيقية فيخفونها عن الأعين، لتظهر جلية في الظلام، وخلف الأبواب المغلقة، فتنهمر اللعنات وألوان السباب على الجميع بلا تفريق، كل من يحنون رؤوسهم أمامه في العلن يلعنونه في الخفاء، واثقين ثقة عمياء أنهم بمأمن من كشف حقيقتهم، هؤلاء أدُورُ عليهم واحدًا واحدًا، أقتحمُ عُزلتهم، أستمع لنبضاتهم، أفهم دوافعهم، وأعاملهم على ضوء ما رأيتُ.

لكني في كل حين أتساءل: لماذا لا تنافق الأسماك الصغيرة الحيتان أو أسماك القرش فتقدم لها كرامتها طائعة خاشعة؟ ولماذا لا تطوف الحمائم والعصافير وغيرها من الطيور الصغيرة طالبة الرضاء من الصقور والنسور والحدأة والبومة وغيرها من الطيور الجارحة؟

أم هذا شيء اخترعه الإنسان، خاصة في بلادنا المُبْتلاة بالنفاق، ليقيهم شَرَّ الأقوياء؟

تلك العطية التي منحتني إياها القطة السوداء نعمة لا تُقدَّر بمال، أذكر جيدًا يوم أن دخلت مخدعي ووجدتها على الفراش تنزف دمًا، وعيناها المتألقتان تحدقان في وجهي وترجوان مني نظرة واحدة تدلُّ على تعاطف أو إشفاق، حدقتُ إليها وسيول الدهشة تُغرِقُ صدري.

كيف دخلت؟ ولماذا لم يرها أحد؟ ولماذا اختارت مرقدي لتنام عليه وتُلوِّثه بدمائها؟ ولماذا تنظر هكذا بطريقة توحي لمن يراها بأنها تعرف جيدًا وتتفهم موقفها وتطلب العون؟

يومها لا أعرف لماذا اقتربتُ منها، لمستُ جسدها، حددت مكان الجرح، طلبت فورًا ضمادة ومضادًّا حيويًّا وشاشًا، عالجتُ الجرح وحملتها الى مقعد صغير بجوار الفراش ووضعتها هناك بعد أن أمرتُ بإحضار طعام يليقُ بها.

فطرتي التي اكتسبتها منذ علوت الكرسي هي الشك في كل شيء، والبحث عما وراء كل تصرُّف، وتمحيص كل كلمة أسمعُها، لكني هنا – ومع هذه القطة – لم أفكر بهذه الصورة، لم أضع افتراضًا أن عدوًّا ما قد سمم دمها لتؤذيني مثلًا، أو وضع في جسدها مفجرًا، أو نثر على جسدها عطرًا مُسمَّمًا لمن يشمُّه أو شيئًا من هذا، بلا تفكير ربما لأول مرة بحياتي منذ اعتليت الكرسي وجدتني أتصرَّف بطبيعتي وسليقتي السليمة الأولى، وأعالج القطة التي رمتني بكل ألوان الشكر والعرفان، بل لا أكذب إذا قلت إنني كنتُ أرى دموعًا تترقرق على حوافِّ عينيها، إلى أن وجدتها يومًا تهب من رقدتها، تفرد جسدها وتنطلق في فضاء مخدعي شيئًا فشيئًا، مستقيمة العود لأعلى، وممتلئة الجسد بلا التواء ولا سمنة، بينما الوجه يستدير، والبسمة تنطلق، والوجنتان تتوردان، وفتاة ولا أروع تحدق إلى وجهي بعينين نجلاوين تفيضان برقة روحٍ لم أرَها من قبل.

- لا أعرف كيف أهدي لك عرفاني لما فعلت.

سألت نفسي لحظتها: وماذا فعلت؟ وهل فعلت؟

وإذا كنت قد فعلت فلماذا طارت مني الأحداث واختفت الظروف والأماكن والأشخاص ولم يعد في الكون إلا وجهها ونظراتها النضرة ووجهها الريان بتعبير ملامحه الذي لم أرَه على مخلوق من قبل؟

الشيء الذي اعتقل روحي هو براءة الصدق في سماتها. لأول مرة منذ اعتليتُ الكرسي أجد وجهًا يفيض بالصدق، وتلك نادرة تحدث ربما للمرة الأولى.

سمعتُها تسأل:

- كيف أردُّ المعروف؟

تبسمتُ هامسًا:

- بمثله.

- كيف؟

- تبقين معي.

تألقت نظراتها بنظرات المكر:

- محال.

صمتت قليلًا ثم احتدم بريق عينيها وهي تحدق إلى عيني:

- هل تذكر حادثة الثعبان الذي قتلته بيدك؟

قلتُ:

- مؤكَّد.
- كان ماردًا من الجن أراد الانتقام مني.
- لماذا؟
- تلك رواية لا وقت لها الآن، لكني أعدك بحكايتها ذات يوم.

سألتها:

- والكلب الذي كان يطاردك؟

تبسمت عيناها:

- كان أيضًا ماردًا من نار لكن شَرَّه كان أشد ولولا حضنك الذي خبأتني به لنال وطره مني.
- لكنه لم يهاجمني.
- خشي مما يحتويه صدرك.
- وما الذي يحتويه صدري.
- القرآن.
- أنا لا أحفظ كثيرًا من السور.
- القليل أخافَه فهرب.
- ولماذا كان يطاردك هو، لا غيره؟
- قلتُ لك تلك قصة أخرى سأرويها لك فيما بعد
- هذا وعد؟

- وعد.

- إذًا سأراك ثانية.

- مؤكَّد، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء!

انكمش الجسد من جديد لتعاود الهيئة تغيُّرها والسِّمات تحوُّلها وتعود القطة تحوم في المكان قبل أن تُيمِّم وجهها نحو الباب متجهة إلى فضاء لا حدود له.

أسئلة كثيرة تركتها خلفها، وحيرة تفيضُ في جنبات الروح، وقلق لا أدري مبعثه، ما دمتُ لم أفهم ولم أدرك ولم أعِ ما حدث منذ لحظاتٍ، ولكني حينما قابلتُها في الظلام مرة أخرى فهمت ما هنالك، وأدركتُ جيدًا معنى التحوُّل والتغيُّر اللذين قالت عليهما حينما أنقذتها من براثن الكلب وكيف استخدمهما ومتى.

أدركتُ بمرور الوقت أنها فعلًا قد مَنحتْ فأجزلت، وأعطتْ فأفاضت، وتركتني أرجو وأتمنى لقاءها من جديد، ربما لأعبر لها عن شكري وعرفاني لصنيعها.

العاصفة

يمتدُّ الطريق مفسحًا المجال للنظر كي يمتدَّ إلى مداه، يبحر في اصفرار لا نهائي يمتدُّ كسجادة أزلية عميقة الغور شاسعة الامتداد، يعلوه هواءٌ رماديٌّ مُحمَّل بغُبار حائل اللون، يرتفع ليلامس إزرقاق السماء، بينما الموكب يمضي قُدمًا إلى مبتغاه.

أُحدِّق من خلال زجاج العربة إلى الطريق، أتابع الجو الذي تغير مطيحًا بهدوئه السابق، مثيرًا الغبار والأتربة في فضاء شاسع لا حدود ولا أبعاد له، في دوائر هائلة الاتساع، تدور وتتصاعد من ركن إلى آخر، بينما السماء التي كانت زرقاء من قبل قد اكتست بحُلةٍ رمادية شديدة الشفافية، ونحن نمضي حيث لا مجال لتراجعٍ ولا مكان لتوقُّفٍ واحتماء بجدار هنا ولا هناك. إذ الوقوف قد يعني دفن الموكب بكامله تحت التراب، أما السير فمعناه التعرُّض لرياح عاتية قد تُطيح بالعربات

التَّعِسَة التي قُدِّر لها أن تُواجِه هذا الموقف الذي لم تَرَ مثله من قبل، اجتمعت لجنة مواجهة الأزمات فورًا للنقاش والبحث عن سُبل الخروج من هذا المأزق، رغم أنها عقدت كثيرًا من قبل ولم تناقش شيئًا، لأنني عادة كنتُ أكفيهم شَرَّ تعب النقاش ووجع الجدال وألم التفكير، وأعطيهم القرارات جاهزة فيصدرونها، وكفى الله المؤمنين شر القتال، لكنني اليوم - ولأن المضطر يركب الصعب - فقد رأيتُ من العقل أن نشترك جميعًا اليوم وبصورة سريعة جدًّا في اتخاذ القرار المناسب لمواجهة ما نحن فيه الآن. بدت الوجوه والتراب يغطيها تماثيل حجرية متحركة ذات تعبيرات صخرية، وعيون كأفواه الأبيار تتحرك مآقيها، فتثير فيك الدهشة الممزوجة بنوبات ضحك استطعت بصعوبةٍ أن أكتمها وأنا أطلب منهم التفكير للخروج فورًا من هذا المأزق.

لكنني بيني وبين نفسي تساءلتُ: كيف أطلب منهم التفكير وهم لم يعتادوا هذا؟ التفكير لا يحتاج إلى أمر، ولكنه فطرة يُفترض أن كل البشر يمتلكونها بدرجات متفاوتة، ولأني أعرف أن درجة تفكيرهم قاصرة دون تفكيري وإدراكي فقد كنتُ على مدار عمري بينهم أفكر لهم أو أفكر عنهم، وأستريحُ من الغباء المستحكم الذي يسكنهم وأستريح من نظراتهم البلهاء وهم يحاولون الظهور أمامي بمظهر المفكرين الذين يمتلكون القدرة على اتخاذ القرار، ويختلفون ويتجادلون وربما تطور الأمر إلى خصومات فيما بينهم، لذا أرحتهم من كل هذا وأرحت نفسي معهم وصرتُ أفكر لهم، وأعطيهم نتائج ما توصلتُ إليه وهم

يتخذون القرار بهدوء وبلا خصومات وبلا جدل، يكفي أن يحدقوا إلى الأوراق المُرسَلة إليهم، يقرؤونها برويَّةٍ وعُمق ويوقعون، وينتهي الأمر، وتنشر الصحف ويُذاع في التليفزيون أن لجنة مواجهة الأزمات اجتمعت وبعد تبادُل النقاش وتداوُل الأمر وتغليب المصلحة العليا للوطن أصدرت اللجنةُ قرارَها!

لكني هذه المرة ولخطورة الأمر ولعدم قدرتي شخصيًّا - ربما لأول مرة في حياتي كلها - على الرؤية الثاقبة والتدبير الحاسم والتفكير السليم اضطررت للجوء اليهم والاستماع إلى آرائهم، بل رجاء سرعة التفكير لإنقاذنا جميعًا مما وقعنا فيه، بينما العاصفة تزداد شدة والأتربة والغبار تتحوَّل إلى سهام تضرب الوجوه والأجساد بلا رحمة. وكانت بعض اقتراحاتهم كالتالي:

- نكمل السير يا فندم.

- نقف وكلما تراكم التراب نقف فوقه فلا نتعرض للدفن تحته.

- نرسل استغاثة إلى الأنحاء القريبة لعلهم يلتقطونها ويرسلون المساعدة.

- نبتهل وندعو جميعًا، ونطلب من الله أن يحلَّ المُعضلة.

- نصنع من أجسادنا دائرة حولك لنفديك بأرواحنا.

أشرتُ إليهم بالصمت كاظمًا سيول الغيظ التي انهمرت في صدري من شديد غبائهم، فكرتُ أن أطردهم من حضرتي إلى حيث يختفون

بوجوههم الكئيبة عن وجهي، تذكرت أنني في موقفٍ لا يسمح بإجراء كهذا. طلبتُ من قائد المخابرات البرعي فورًا تقريرًا بالموقع الذي نحتلُّه الآن، وفرص وجود أحياء أو منازل أو حتى جدران نحتمي بها لحين انتهاء العاصفة. جاء تقرير المخابرات فوريًّا.

(لم نتمكن من عمل شيء لشدة هبوب الريح)

أيقنتُ بالهلاك الذي لا مفرَّ منه ولا جدوى من مقاومته.

قمتُ من فوري مغادرًا العربة، متلفعًا بدثار سميك غطى جميع وجهي عدا عيني، مُحدِّقًا إلى الضباب وغبشة الفضاء من حولي، لا شيء إلا الأتربة وصفير الريح واصفرار الجو واختفاء وجه السماء خلف أدخنة الغبار المتطايرة في الفضاء.

استدرتُ قاصدًا العودة إلى داخل العربة، فوجئت بضربة قاسمة في ظهري، دفعتني بلا حول مني لأرتطم بجسد العربة، ثم أعودُ مرتدًّا عنها إلى حيث أطاحت بي من مكاني عاليًا إلى أدنى، اندفعتُ خفيفًا كورقةٍ شفافة وسط ريح عاصفة ضربتني في عنف قاهر، ورأيتُني أتدحرجُ في وضعٍ جنينيٍّ إلى حيث لا أدري، مغمض العينين، ذاهل الروح، تائه النبضات والقلب، لا أمتلك المقدرة على المقاومة، ولا أستطيع التوقف والامتناع، كأنما أنا قشة محمولة على ذؤابة موجة شاردة هوجاء مطروحة في براح نهرٍ ماؤه جار لا يعرف التوقُّف بفعل التيار الذي يهرول هو الآخر شارد الخطوات في مسار لا يدري ولا يعرف إلى أين ولا كيف يهرول ولا متى يتوقف، أتدحرج وأتكور

وأدور وأمضي إلى حيث أرتطمُ بلا حول ولا قوة في جدار لا أعرف كيف انشقت الأرض عنه وهل هو بزغ من باطنها أو نزل إليها من السماء ليوقف هرولتي اللا إرادية وتدحرجي اللا محدود.

استكنتُ بجوار الجدار قليلًا محاولًا البحث عن وجودي الذي شعرتُ به قد تلاشى ولم يعد له وجود، الرؤية مُضبَّبة فلا أرى إلا بياضًا باهتًا تعلوه نقاط سوداء، أو سواد خفيف تخرقه نقاط بيضاء، أحاولُ مَدَّ يدي لتحسس جسدي فلا أمتلك القدرة على تحريكها، أبحث عن ساقي لأستند عليها فلا أستطيع، ورويدًا أعود إلى متاهة غياب لا إرادي عن الوعى، يشدني إلى ظلمة كثيفة، فلا أرى ولا أسمع ولا أحسُّ بشيء مما حولي، ويتلاشى الإحساس المبرح بالألم، لأراني فجأة أطير مرفرفًا بجناحي وسط حديقة غناء، أشجارها ذات خضرة زاهرة، متدلية الأغصان، مُحمَّلة بالثمر، مثقلة بالطير الصداح، سامقة وحولها خمائل زهر صغيرة، متناثرة بنظام أروع وأبهى مما رأيتُه من قبل، ينداح عبيرها ليملأ الأفاق مُعطِّرًا الروح والوجدان، ومانحًا القلب إحساسًا من النقاء لم أذقه من قبل، وحولي طيور بيضاء رائقة الحسن، تصدح بأروع ما منحها الله من أصوات، وهي تطوف حولي متريضة بين الخميل والأشجار، أُحدِّق في وجوهها، يملأ النور قلبي، وتنتشي روحي، ويغمرني سرور أروع وأبهى من أي سرور غمرني من قبل، سرور نقيٌّ بهيٌّ رائق، له طعم الفرحة والهناء، سرور له مذاق البهجة الصافية النابعة من قلب النور، أو نور القلب، سرور يُعبِّق النفس،

ويتغلغل بين الخلايا والسمات، يمنح الكيان كله راحة وسكينة لا تساويها في الكون راحة ولا سكينة ولا هدوء، أتنسم أريجه وأذوب في بهاء صفاه راضيًا، قرير العين، موفور الهناء، ووجوه الأحباب من حولي طوافة بين يدي ومن حولي، وبينها وجه الفتاة / القطة بجمالها الأخَّاذ الذي لم أرَ ولم أحلم ولم أتمنَّ رؤية شيء مثلها تمنيتُ رؤيته مجددًا، كلها من حولي طوَّافة دون أن يشغلها عن الطواف واستنشاق الأريج وتذوق البهجة شيء، ندور ونهيم ونسبح في فضاء رائق شفاف بهي، بلا زمن يطوينا ويخمش أرواحنا بأظفاره، ولا حاجات نطلبها ، أو تطلبنا وتشغلنا عما نحن فيه، ولا مطالب ننشد نوالها، ولا أماكن ولا شيء إلا اعتناق هذا النعيم الطواف، إلى أن فوجئتُ بمن يقبض على عنقي، يشدُّني من وسط الخمائل ومن بين فروع الأشجار خارجًا، أخذتُ أقاومُ، أصرخُ، أرفضُ، أحاولُ التملُّصَ والعودة دون جدوى فقد كانت الأيدي أو المخالب أو الأنياب التي تشدُّني أقوى من أن أقاومها، فرأيتُني فجأة أرفع جفونًا مُثقلة عن حدقتين غائمتي الرؤية تتلصصان على كونٍ لا تريدان العودة إليه، رويدًا بدأت الغشاوة تنقشع، والمرئيات تنبلج من جديد، ورأيتُني أرى الكون الذي أفلت منه بصعوبة أعود إليه واجمًا حائر النظرات تائه الروح والنفس، لا أدري أين أنا ومن هؤلاء، وحتى من أكون!

في وكر الذئاب

- أخيرًا استيقظ.

- اعتنوا به إلى حين شفائه.

ترددت الكلمات في أذني مُضبَّبة الحروف، كأنما هي آتية من خلف كهوف وسراديب متناهية البعد والقرار، حاولت قدر إمكاني أن أستوعب الحروف رويدًا، وأدركُ معناها فلا تمرُّ على أذني بلا فهم أو إدراك، خاصة وأنا لا أفهم ولا أعي أين أنا، ومَن هؤلاء، وقد بدأت لتوِّي أدركُ جيدًا الورطة الجديدة التي وقعت فيها دون خطأ مني أو من الأغبياء حولي الذين لا همَّ لهم إلا الصراخ في أذني:

- تحت أمرك يا فندم.

دون أن ينفذوا شيئًا، وحتى إن نفذوا فالخطأ عنوان تصرفاتهم جميعًا، ولولا أنني دومًا أتدخل في الوقت المناسب لانهار الكرسي، ومن ثمَّ انهارت كل الأشياء من حولي.

هذه المرة لم يكن الخطأ منهم بل هو تدبير قدري دفعني دفعًا إلى أيدٍ مجهولة ونفوسٍ غريبةٍ، الله يعلم ما وراءها.

بدأت رويدًا أنتبهُ للوجوه من حولي، ملامح منبسطة يغشاها سكون حالم، وعيون نضرة تحمل بسماتٍ ناعمة مما أثار في صدري الارتياب، مؤكد لم يعرفوني بعد وإلا كانت الأمور قد تغيرت كثيرًا.

اقترب وجه أنثوي باسم من وجهي:

- الدكتور قادم للكشف عليك.

حدقت إلى وجهها، الوجه الصبيح رغم مظاهر الفقر المنتشرة في المكان يفيض بوفرة في الجمال وغنى فاحش في حلاوة الروح وبهاء الحسن.

الغرفة المتواضعة التي أرقد في أحد أركانها لا تحتوي عدا مرقدي إلا على مائدة صغيرة، حولها مقعدان من الخيزران القديم كما يبدو من هيكله، بالإضافة إلى دولاب صغير من الحديد المجلفن الرمادي اللون إلى جوار النافذة المغلقة الزجاج، والتي يبدو من خلفها فروع أشجار مورقة، وعصافير بين الحين والحين تضرب بأجنحتها الهواء مُتنقلةً من مكان إلى مكانٍ، ناثرة بهاء أصواتها وروعتها في مرح وسرور.

- هل أنا مريض؟

وجهتُ حديثي لعينيها مباشرة، انطلقت من عُمق العينين بشائر همسة طبيعية رائقة:

- سنرى.

جميل أن يكون للحروف طعم ولون ورائحة، تشعر بها وتتذوقها وتطرب لرنينها، مؤكد لا يعرفون مَن أكون.

لكن لماذا أتوقع منهم معاملة قاسية إذا عرفوا شخصي؟ لماذا لا يقدمون خير ما لديهم لحظتها طمعًا في عطايا ما بعد الإياب إلى الكرسي؟

هم يعرفون جيدًا وغيرهم في أنحاء البلد يعرف أنني أستطيع فعل الكثير لكل من أرضى عنه، والإنسان بصفة عامة يختزن الطمع في نفسه لحين يرى ما يستحقُّ، فتهفو روحه إليه، يكفي أن تلوح لإنسان ما بعطيَّة مجانيةٍ أو بغنيمة خالصة له لتراه يبذل روحه للحصول عليها. الطمع فطرة جامحة تفيض عند البعض، لا يكبح جماحها إلا القناعة، وتلك قليلة عند الناس، خاصة هذه الأيام.

- السلام عليكم.

استدرتُ إلى الباب الموارب الذي فُتح على آخره ودخل رجل طويل القامة ثاقب النظرات على مُحيَّاه بسمة بطول شدقيه لكن رائحتها لم يستسغها وجداني.

- وعليكم السلام.

- كيف حالك الآن؟

- لا أدري.

- دعنا نَرَ.

خلت الحجرة إلا منا نحن الاثنين، مَدَّ يدًا مدربة إلى جسدي متفحصًا بدقة، متنقلًا هنا وهناك بجدٍّ صارم إلى أن قام مُتَمهِّلًا إلى أدواته يجمعها هامسًا:

- زالَ كلُّ أثرٍ للحادث.

وانطلق خارجًا في هدوء كما جاء.

اعتدلتُ جالسًا منتظرًا أن أرى أحدًا لأطلب منه الخروج إلى حيث أستطيع العودة إلى مقر الحكم واعتلاء الكرسي من جديد، رأيتُ ذات الفتاة الأولى قادمة ويداها تحملان بعض الملابس المغلفة بأغلفة من البلاستيك؛ مما يدل على أنها جديدة أو على الأقل منظفة في مكان يجيد التنظيف.

- تفضل إلى الحمام.

- الحمام!

- للاغتسال والاستعداد للقاء السيد سليمان.

- من السيد سليمان؟

- حاكم المدينة.

- ولماذا أقابله؟

- لأنه طلب هذا، وأشرفَ على إنقاذك وعلاجك طوال مدة مرضك.

- هل مرضت أيامًا، أم ساعات، أم ماذا؟

- أيام عديدة. ظل الدكتور جابر فيها يبذل جهده لإنقاذك.

- الدكتور جابر؟

- وكنتُ مكلفة بمساعدته، ورعايتك.

اتجهتُ إلى الحمام، كنت بحاجة لإزالة ما علق بجسدي من أدران، خاصة أنني لم يحدث من قبل أن قضيت زمنًا كهذا بلا اغتسال، فتحتُ الباب ودخلتُ مُتمهِّلًا لكنني فُجعت، رفضت قدماي التقدم خطوة واحدة إلى الداخل، المكان لايمت الى الإسم بصلة، فهو ليس حمامًا كما تعودت، وكما تخيلت أن يكون، فليس هناك إلا ماسورة خارجة من صنبور المياه مرفوعة إلى أعلى ومنتهية بغطاء مثقوب بثقوب عدة ينزل منها الماء البارد على الجسد، وأنا لا أتحمل الماء البارد أبدًا، منذ أن انتقلت إلى القصر الكبير وأنا أتبع طقوسًا محددة في الغسل، أولها أنني آمر بحرارة معتدلة يشرف عليها طبيب متخصص في أمور الاغتسال وما شابَهَ ذلك، ولا أتخيل بحالٍ أن يلامس جسدي الماء البارد وبهذه الطريقة، مُحال أن يحدث هذا.

تراجعتُ خطوات إلى الخلف، تقدمت الفتاة بعينين فيهما تساؤل دافئ لم أرَ مثله في القصر وبهذه النظرات الفياضة بالبراءة، عينان

ذكَّرتني رؤيتها بعينين أخريين ما زلتُ أهفو لرؤية صاحبتها رغم بُعدها كل هذه السنوات، عيني ناديا جارتنا التلميذة الحسناء التي كنتُ أرى فيها لوليتا كما رسمها الروسي فلاديمير نابوكوف التي كبرت معي وكبر معها حُسنها وروعتُها:

- ما الأمر؟

أشرتُ بيدي الى الداخل محتجًا:

- الحمام.

- هذا ما لدينا.

تقدَّمتُ مُكرَهًا، أغلقتُ الباب خلفي، خلعتُ ملابسي وفتحت الصنبور، لم أجرؤ على الاقتراب من الماء، اكتفيتُ بغسل وجهي بالصابون، تراجعتُ قليلًا لكى ألتقِطَ بضع قطرات في راحة يدي أمسح بها وجهي وأعودُ من حيث أتيتُ، انتبهتُ لمن يدفعني برفق إلى الأمام، ارتجفت، استدرتُ مرتعدًا لأرتطم والصابون في عيني بصدرٍ امتصَّ الصدمة بدلالٍ وعاد يردُّني إلى الداخل من جديد، حاولت المقاومة، امتدت الذراعان حاجزًا بيني وبين الإفلات ووقف الصدر ليمتصَّ الصدمات، مسحتُ عيني بباطن كفي سريعًا لأرى البنت أمامي حاملة بسمة هادئة وفي الوقت ذاته حادة كالسيف وهي تهمس بدلال: لا هروب، كان الماء مثلجًا، اقتربت منه لسع صدري بإبره المسنونة، تقهقرت سريعًا ليلتقي ظهري بصدرها من جديد وندخل معًا إلى

الدش الذي شعرت بمائه يغلي فورًا، وأنا أستديرُ إليها، يلتصق جسدانا، تتأجج النيران، نتلوى من الصهد بينما الماء يذوب نعومة وهو يتمدد حولنا وبيننا وتحتنا مرة كسرير ناعم حريري اللمسات، ومرة كدثار دافئ يقي من البرد ومرة كعصفور يزقزق في روحينا بزقزقة السرور والابتهاج، ارتديتُ الملابس التي قدمتها إليَّ وخرجت إلى الحجرة، اتجهتُ إلى المائدة الصغيرة، واجهت الفتاة الهادئة النظرات وهي ترمقُني بدفء عينيها ونقاء روحها الذي يكاد يشب من حدقتيها وكأنها لم تفعل كل ما فعلت منذ برهة او أقل، لزمتُ الصبر وجلست أنتظر في هدوء!

درتُ بعيني على المكان من حولي.

رغم أنني حدقتُ إلى أشيائه البسيطة من قبل، فإنني الآن متوحد مع توجسي المعهود أدور بعيني خبيرٍ، متفحصًا، مدققًا، منقبًا عن أشياء قد توضع هنا أو هناك كعادة الناس هناك، خاصة حينما تحلُّ ضيفًا على بلد ما ويتجسسون عليك، خاصة في حجرة نومك، وفي حمامك، وربما فكروا في الدخول إلى أفكارك وأحلامك والتفتيش فيها بغية أن تكون عاريًا تمامًا أمامهم، يفعلون بك ومعك ما يريدون، الشيء الجميل هنا أنه لا توجد مثل هذه الأشياء، ربما لتواضع الحال في هذه المدينة التي هي جزء من البلد الذي أعتلى أكبر كرسي فيه، هي جزء من مملكتي العتيدة أو دولتي الكبيرة أو سَمِّها ما شئتَ. المهم أنها تنتسب إليَّ.

لكن المقلق الآن أن يعرفوا هذا، فالمخابرات تطلعني على آراء الناس، وأفكار عامتهم، وما يقولونه وما يخبئونه في صدورهم عني،

وهي أشياء ليست مطمئنة بحال هذه الأيام، لـذا فالجميـل هنـا أنهـم لم يعرفوني كما يبدو، ومـن ثـم لم أعـد في حاجـة لتغيـير شـكلي أو تحويـل صورتي أو شيء من هذا، ومن ثم المعاملة طيبة أيضًا رغـم أنهـا عاديـة، فهي حالة إنقاذ لرجلٍ أشرفَ على الهلاك. هي أنسب معاملة حتى الآن، المهم أن أخرج من هنا على خير.

لكن هناك شيء يُحيِّرُني ويُثيرُ القلق في نفسي، وهو اختيـارهم فتـاة لخدمتي أنا الغريب والوجود في غرفة نومي والمبادرة بالفعل معـي عـلى عكس ما هو معروف من البنات، عـادةً البنـات تتـدلَّل وتفـرُّ وتتمنَّـع وتنتظر حتى يظن الرجل أنه أوقعها بوسامته أو رجولته أو شيء دون أن يدري أن الفريسة الحقيقية لم تكن سواه.

لماذا دفعوا إليَّ فتاة مثل هذه بدلًا من رجـل يتعامـل معـي كـما هـو العرف هنا في هذه الأماكن؟ لو كانوا يعرفـونني لقلـتُ أنهـا مقـصودة، فالقريبون مني يعرفون أنني أُفضِّلُ الجميلات الصغيرات ذوات الـبراءة واللُّطف، اللواتي يملن إلى الوداعة ويبدون كملائكة صغيرة تخطر عـلى الأرض، أو كما يقولون أعشق أي لوليتا أراهـا، لـيس مُهـمًّا أن أمـارس معها لعبة الحياة الأبدية بين الرجل والمرأة، تلك اللعبة الخالدة التـي لـو أحسن الطرفان لعبهـا لنـالا الخلـود، لـو أدركـا قدسـية لهيبهـا وسـمو طقوسها والتمسا من بديع كينونتها سمو الارتقاء لنالا مـا يريـدان كـما يريدان، فهذا التوحد والامتزاج هو سر الكون، هو كينونة الخلق وبراءة التكوين وجلاء الحجاب المـستور، تمـازج الـروحين وذوبـان النفـسين

والتحام الجسدين يهب الشرارة المقدسة ويمنح الرونق البهي والسموق الذي لا تدارك بعده ولا انحدار، شريطة أن يدركا ويستوعبا ما لم يدركه أو يستوعبه إلا أقل القليل عبر عمر الكون، وليت الذين أدركوا هذا واستوعبوه تحدثوا وشرحوا روعة ما عثروا عليه.

أعود فأقول: لو كانوا يعرفونني لقلت: إنها مقصودة فالقريبون مني يعرفون أنني أفضل الجميلات الصغيرات، أو كما يقولون أعشق أي لوليتا أراها، ليس مُهمًّا أن أمارس معها لعبة الحياة الأبدية بين الرجل والمرأة، فهناك فتيات أخشى عليهن من اللمس، أنظرُ إلى حُسنهنَّ وأتساءل: كيف تقوى مثل هذه الفراشة الوديعة على تحمل ثقل جسد شهواني يطؤها؟ هذه يجب ألا تلمس، هي فقط للشم والرؤية، وإذا لمستها فبرفق زائد وبعطف شديد، أقتربُ منها، أتلمَّسُها، أستنشقُ عبيرها، أستمعُ إلى همسها وأحدِّقُ إلى بؤبؤي عينيها متبحرًا في دروب روحها وأزقتها، وحينها أراني قد تحولت بلا إرادة مني إلى ذكرٍ من نوع جديد لم تَرَه البشرية من قبل. ذكر ينتقي ويتخير، ويدور متمهلًا بيد خبيرة وفم ذواق في رحاب جسد شفاف حالم، يبتغى ارتشاف عسله قطرة قطرةً بلا أدنى استعجال، متعمقًا في دروبه السحرية وأخاديده الوردية وسُهولِه ذوات الألق والنقاء، مُنتشيًا هانئًا مكتشفًا كنوزًا ما عرفها كائن من قبل. فاللقاء السرمدي الخالد بين الذكر والأنثى لا تجلو متعته وروعة عطاياه ومِننه كما قلتُ إلا الأرواح المبدعة ذات الأفق الممدود والخيال الخصب.

تلك الأرواح المبدعة تختلف تمامًا عن الأرواح العادية المنتشرة بكثرة هنا وهناك، التي لا ترى في هذا اللقاء إلا متعة حسية تشتعل نارها لحظاتٍ مهما تكن روعتها ثم تنتهي، ترى اللقاء وسيلة لإشباع رغبة تفور وتتأجج ثم رويدًا تتحوَّل إلى رماد لا أثر له، وربما نسيت الأمر برُمَّته بعد حين وتعاملت بقسوة وعنف مع بعضها البعض.

أما الأرواح الأخرى المبدعة فهي تغوص وتتعمق وترى ما لا يراه الآخرون. هي تمتلك القدرة على خرق العادات والمألوف لترى ما وراء الظواهر إلى البواطن والغيبيات. وهي قد لا تشعر أو لا تعرف كل هذه المسميات، لكنها تفعلها وتتفوق في فعلها، بدليل أن اللقاء مع إحداهن لا أنساه أبدًا، ولا أظنُّ أنها يمكنها أن تنساه يومًا مهما تطل بها الحياة، فمتعة اللقاء تمتاز بأنهما روحان يمتزجان، يحتويان بعضهما البعض برويةٍ وصبرٍ وتمهُّلٍ وانتشاءٍ وشغفٍ لا تعرفه إلا الأرواح النبيلة الراقية الذكية التي تعرف جيدًا كيف تستخرج من المادة غذاءً للروح.

و..استدرتُ إلى الفتاة المواجهة لي على الناحية الأخرى من المائدة الصغيرة، رغم تسلل بعض الشك إلى صدري أن وضعها في طريقي ربما يكون مخططًا له لمعرفتهم بطباعي إلا أنني قطعًا للوقت فكرتُ في مسامرتها إلى حين اتضاح ما سوف يَجِدُّ من أمور.

حدقتُ إلى وجهها، عينيها، قوامها، تشبه لوليتا التي أُفضِّلها كثيرًا، تقترب منها بأروع حال، وهي مثلها في جرأتها وعنفوانها كأن كل لوليتا خُلقت قد مُنحت ذات الصفات والأفعال والرعونة والجمال أيضًا!

فكرتُ في أمري وأنا على تلك الحال، وحيدًا وسط قوم لا أعـرف ما يدبرون لي، وإن كانت البوادر حتى الآن مبشرة بخير.

فتحتُ فمي لأتكلم، سبقتني بالقول:

- السيد سليمان ينتظرك في الساحة الكبرى.

انتبهت لحروفها فأغلقتُ فمي، واضـطررتُ لمغـادرة التحـديق إلى رِقَّة شفتيها وارتفاع صدرها، تمعنتُ بكلماتها، تساءلت:

- أي ساحة؟

- ساحة المدينة الرئيسية.

- لماذا؟

- يمكن سؤاله هو.

وأشارت إلى الباب.

إشارتها رغم رِقَّتها كانت خادشـة لكبريـاء مـثلي وفي الوقـت ذاتـه منافية تمامًا لما كان بيننا منذ حين، تقدمتُ خارجًا لأجد جنديين بيد كـل منهما سلاح جديد لامع الأجزاء ممـا يـدلُّ عـلى أنـه لم يُـستعمل بعـد أو استُعمل قليلًا أو ربما هو للتشريفات.

سرتُ بينهما مغادرًا البناية إلى حيث ركبنا عربة صغيرة سـارت بنـا في أزقة وحاراتٍ ضيقة قبل أن تنطلق إلى الطريق الواسع الكبـير الـذي تقطعه المواكب الرسمية متجهة أو قادمة من العاصمة حيثُ أقيمُ.

لم أحاول التحدث إليهما بشيء فقد فهمت من كلمات الفتاة هناك أن الرد سيكون واحدًا في كل الأحوال.. يمكنك سؤاله هو. سنرى الآن ما هو الأمر بالضبط.

بدا على البُعد أخيرًا سور حجري شامخ، عليه رسوم بألوان زاعقة قد حالت ألونها نوعًا ما يتوسطه باب عملاق من الخشب المنقوش برسوم أسد مُتوثِّب على كل جانب من جانبيه، بينما الحرس مدججون بالسلاح يقفون مصطفين في هدوء حازم، والناس ألوان وأشكال تملأ داخل السور، وإن كان هناك شبه صمت مترقب يغلف المكان، مُتَّشحٍ بنور شمس حانية، ضياؤها دافئ ونورها شديد الصفاء.

اقتادني الحرس إلى ركن الساحة الأيمن حيث رأيت قفصًا حديديًّا قضبانه متينة البنيان ، تتجاور في نظام وبمسافات قريبة جدًّا معطية من خارجه الفرصة ليرى من بالداخل ويتابع ما يجرى فيه.

فتحوا باب القفص أمامي فارتعدتُ وأنا أحدس ما سوف يفعلونه بي، هل يمكن أن يزجوا بي داخله؟ هل عرفوا من أكون وأرادوا فضحي أمام الخلق وإيذائي والإساءة لي وإذلالي أم ماذا؟

دفعتني يدٌ رفيقة من خلفي إلى الداخل، هوى قلبي في فضاء جوفي صارخًا والباب يغلق عليَّ من الداخل، تحولت إلى فراشة فورًا وانطلقتُ مخترقًا الفراغ بين القضبان، صدَّتني أشعة قمر شديد السطوع سلَّطوها على القفص فارتددتُ خائبًا مُذعنًا إلى ما كنتُ عليه، وأحنيتُ رأسي، بانتظار ما سيكون.

على منصةٍ خشبية زيتية اللون مرتفعة بحيث تراها الأعين المصرة على التحديق، مزخرفة بنقوش تبينت أنها كتابة تقول:

(العدالة صنو الحياة، والمساواة روح الوجود)

موضوعة تحت رسم امرأة رشيقة القوام تحمل الميزان وهي معصوبة العينين. رأيت شابًّا هائل حجم الرأس، عيناه ذواتا بريق وحشي، ويداه كل كفٍّ بحجم مطرقة عملاء. ينتفض قائمًا، راميًا بكلِّ وحشية نظراته نحوي، صارخًا بأعلى صوته الغليظ اللزج الذي يدخل الآذان كرْهًا، ولا يغادرها أبدًا:

- سيدي صاحب الكرسي الرفيع، راقي الفكر، بليغ البيان، أيها الحضور الكرام، لقد جئنا اليوم ليس لنتشفى في هذا الرجل الماثل أمامنا، وليس لنذيقه مما أذاقه لنا سنين عدة، ولكن لإقامة العدالة الناجزة، وتحقيق المساواة الشاملة، وليعرف كل إنسان يحمل أمانة المسئولية أنه إذا جارَ أو ظلمَ فسوف يكون مصيره هذا القفص، وتحت أنظار هؤلاء الخلق، يتلقَّى اللعنات قبل أن يتلقى الجزاء الرادع لمثله.

إننا أيها السادة إذا أردنا أن نُعدِّد ونحصي جرائم هذا الرجل (مشيرًا إليَّ) لما اكتفينا بمحاكمة واحدة في جلسة واحدة، ولو أردنا تسجيل فساده لما وجدنا ما يكفي من الأوراق لتسجيلها من كثرتِها.

وحتى لا أطيل عليكم فسوف أقسم أعماله الفاسدة حسب تخصُّصها:

- فهناك فساد في الزراعة.
- وفساد في الصناعة.
- وفساد في التجارة.
- وفساد في التعليم.
- وفساد في الصحة.
- وفساد في القضاء، والنقل، وغيرها وغيرها مما لا يتسع له المجال هنا. لذا فسوف نُخصِّص أيامنا المقبلة لنحاكمه كل يوم عن فرع واحد من الفساد، حتى إذا استوفينا الأمر جاء الحكم بمقتضى العدالة والحق، وأيًّا كان الأمر فسوف ينفذ الحكم مهما يكن هنا بينكم.

والآن اسمحوا لي أن أتكلم عن التعليم، وهو أساس البناء لكل أمة من الأمم، لذا يضع الحكام أمره نُصب أعينهم.

(المرحلة الابتدائية التأهيلية أو الأساسية)

يجب أن يتم توفير أفضل معلمي البلد المدربين تربويًّا ونفسيًّا لها، وتوفير المؤهلين للتنشئة والرعاية، مع تحديد أولويات العلم المطلوب منهم تعلُّمه، والإصرار على نقشه في صدورهم، والاشتراط ألا يلتحقوا بمرحلة تالية إلا إذا اجتازوا اختبارات حازمة تعتمد على الفهم والإبداع لا الحفظ، ومَن يجتزها يَنتقلْ إلى المرحلة التالية، ومَن لا يَجتَزْها يَعُدْ للدرس من جديد وإلا فسيظل مكانه مهما يكن الأمر، وهكذا في

المرحلة التالية والتالية بعيدًا عن الغش أو الحفظ بـلا فهـم أو الـدروس الخصوصية التي استشرت في عهده بطريقة لم تحدث من قبـل، رغـم أن قرارًا واحدًا كان يمكن إيقافها وإلغائها من قاموس اللغـة تمامًـا، وهـو غلق معاهد الدروس الخصوصية وساحاتها، ومن يـضبط وهـو يعطـي درسًا خاصا أو يثبت عليه أنـه فعـل هـذا يـشطب مـن قائمـة المعلمـين وتُصادر أمواله وأموال عائلته بالكامـل، وتقـوم الدولـة بإعطـائهم مـا يكفي معيشتهم طوال العمر مع مواكبة طرق التعلـيم العالميـة، والـسير على ذات الدرب الذي يسيرون عليه. موضـوع كـما تـرون أيهـا الـسادة سهلٌ ولا يحتاج إلا لإدارة هدفها الـصالح العـام، ولكـن المـتهم أفـسد الأمر فوكَلَ إلى مَن لا يفقه شيئًا مهمة إنشاء أجيال، خرجت ضـعيفة لا تمتلك مقومات العلم، والذنب ليس ذنبها بطبيعة الحال، وأفشى الغـش والمحسوبية والطرق الملتوية ليقضي على الأخلاق العامة، ويمحو مبادئ الحق والعدالة التي نشأ الجميع منذ قديم الزمن عليها، وترعرعوا وهـي منقوشة في صدروهم، فلم تستطع الأيام رغـم كثرتهـا أن تمحوهـا مـن ضمائرهم، وجاء هو ليمحوها وعن جدارة بحُمقه وسوء حكمه وفساد روحه وقبح نفسه.

فإذا ما نظرنا إلى التعليم الجامعي فسنجد كارثة جديـدة وجريمـة أكبر ارتكبها هذا الرجل، وهي فتح الباب أمـام الغـش والتزويـر لمـنح الشهادات الكبـيرة للجهلـة والغـشاشين مـن أصـحاب الجـاه والمـال، فأصبحت البلد في يد من لا يفقه شيئًا، وصار القرار في يد من لا يـصنع

القرار، وأصبحنا غرباء في بلادنا، وصارت لغتنا الأم شريدة تائهة بين أهلها، فضلًا عن العلوم الأخرى.

إنني أيها السادة أُدينُ هذا الرجل وأريدُ الآن حكمكم عليه، الحكم العادل الذي يُرضي ضمائركم ويشفي غليل صدوركم.

أدرتُ وجهي مذهولًا في تعبيرات الوجوه من حولي وخاصة وجه هذا الرجل الموتور متسائلًا بدهشة جارفة أطاحت بروحي قبل أن تتغلغل في نظراتي:

- هل كل هذا أنا فعلته؟ أنا السبب فيما آل اليه حال التعليم؟ أنا؟! وأين كان الخبراء وأرباب العلم؟ ولماذا لم يقدموا اقتراحاتهم ويطلبوا ما يريدون؟ هل يظن هؤلاء أنني أسير خلف المقولة القديمة التي تقول إن حكم أمة جاهلة أسهل وأيسر من حكم أمة متعلمة؟

كلا وألف كلا، فأنت مع المتعلمين تستطيع أن تبذل جهدًا أقل بكثير لتنفيذ ما تريد، النفوس في كل الأحوال لن تتغير سواء كانت متعلمة أو جاهلة، الشجاع والذكي والفطن لن يتغير طبعه بحال، وكذلك أصحاب النفوس الضعيفة مهما تعلُ معرفتهم ستظل نفوسهم كما هي.

التعليم لن يغير جبانًا إلى شجاع أبدًا، ولن يُحوِّل مستغِلًّا منتهزًا للفرص إلى زاهد، ولن يمنح الذي فُطر على الركوع قامة جديدة يرفعها في وجه الخلق.

شـدَّني مـن شرودي صـوتٌ قـادم مـن منتـصف الـساحة، حيـث الكرسي الكبير الخاص برئيس المدينة، كان شديد الجفـاء، عـالي النـبرة، عاتيًا في تكبُّره، عرفت فيه صوت السيد سليمان الذي طالما رأيته خاشعًا مستكينًا من قبل وهو يُوجِّه سؤاله لي:

- ما قولك فيما هو منسوب إليك؟

حدقتُ إلى وجهه المربع بشاربه الذي يعتنـى بـه أكثـر مـن اعتنائـه بنظافة قلبه، قلت له كل ما فكرت فيه، عاد يسألني:

- مَن الذي عيَّن هؤلاء الجهلة مسئولين عن التعليم؟

صمتُّ قليلًا وهو يتفرس في وجهي متشفيًا، ثم أكمل:

- ومن الذي يجب عليه متابعتهم ومحاسبتهم إذا أخطؤوا؟

صرخت في وجهه مُستفَزًّا:

- عفوتُ عن خطاياهم، كما عفوتُ عنك لمـا رجـوتني وتـذللت لي.

ارتفعت أصوات العامة تقاطع كلماتي بالسباب والهتافات الغاضبة، لم أستطع استكمال مـا أريـد وسـط الـضجيج الحـادث، وقفـتُ مكـاني منتظرًا ما سوف يتفقون عليه، مُسلِّمًا أمري لـصاحب الأمـر، فلـم يعـد لديَّ ما أستطيع فعله إلا انتظار أمثال هؤلاء ليقرروا أمـري ومـصيري، ويحددوا لي مايشاؤون!

عاد صوت ممثل الادعاء المتولي يقتحم أذني مكفهرًا حاقدًا، متحدثًا إلى العامة ليأخذ منهم في نشوة الانفعال والضوضاء والفرصة السانحة تصريحًا بالانتقام:

- والآن الحكم على المتهم..مذنب أم غير مذنب؟

تعالت الصيحات الموتورة لتحاصرني من كل الأنحاء:

- مذنب.

ارتسمت على وجهه أمارات راحة لم أرَ مثل سخافتها من قبل، وأمر بفضِّ الجلسة على أن تُعاد للانعقاد غدًا في ذات التوقيت، طالبًا إعادتي إلى ذات المكان الذي جئت منه، والذي اكتشفت أنه محبس يليق بحاكم مُتَّهم مثلي ينتظره الكثير من الانتقام والتشفي.

تم فتح باب القفص بحذر وسط صراخ الغوغاء وغضبهم، الذين حاولوا الوصول إليَّ وكل منهم يبرز عضلاته وقوة غضبه وعنف شكيمته، ويلقى في وجهي بسيل من أفظع أنواع السباب وأشرسها، وأنا لا أمتلِكُ إلا نظرات رسمتُها على وجهي مع ملامح تليق بالموقف.

اصطفَّ الجند على الجانبين ليس لحمايتي كما اعتدتُ ولكن هذه المرة لحماية الغوغاء من شرورهم وحقدهم، والإبقاء عليَّ حيًّا ليمتعوا أنظارهم وأسماعهم وهم يرمونني بالتهمة تلو التهمة، وسط حشد من كراهية وحكم مسبق بالإدانة، دون أن أمتلكَ المقدرة على الردِّ، أو حتى قول الحق الصُّراح الذي لا زيف فيه، وهو أن المختصين في مجالاتهم

المختلفة لم يكونوا يراعون ضمائرهم، وكنتُ أسأل أيهم: هل فعلت كذا؟

فيقسم أن الأمور تسير على خير، وبطريقة من أحدث الطرق في تاريخ البلاد قديمها وحديثها.

وهل لديَّ الوقت والعقل لمتابعة كل منهم، وتكذيبه، والحفر خلفه للتأكد من إنجازه؟ إنني لو فعلتُ هذا فلن تسير الدولة بحال.

ما دمتُ اخترتُ مسئولًا لقيادة عمل ما فهو المسئول عنه لا أنا، وكثيرًا ما وجدت أخطاءً وحاسبتُ عليها، أو أبلغني تقرير أو ملفٌّ بوجود تقصير فحاسبتُ صاحبه، لماذا لا يذكرون هذا الآن؟ أم هو حُكم مُسبَق يريدون تبريره على أي حال؟

يسأل الرجل الشرس النظرات المتولي الناس المتأججة بنيران غضبها سؤالًا غبيًّا مثله: مذنب أم غير مذنب؟ وهو يعرف وهم يعرفون وأنا أعرف وأحجار الساحة وسحابات السماء المارة تعرف أيضًا ردهم قبل أن يقولوه. لا فائدة من تحقيق العدالة على الأرض، هنا أو هناك!

خرجتُ في حراسة الجند إلى محبسي من جديد. الغريب أنني لم أكن مكدودًا بحال، ولا متوترًا، ولا أعاني غضبًا أو ضيقًا، فما دامت الأمور تسير هكذا فالعاقبة محددة، ولا تغيير فيها مهما تكن الظروف والمتغيرات، فليفعلوا ما يريدون.

أغلقوا الباب بمجرد دخولي محبسي من جديد، رأيتُ ذات الفتاة تقف هادئة تنتظر أوامري، حدقت إلى قوامها متأملًا ثدييها المرتفعين!

الأثداء المرتفعة هكذا تكون عادة أثداء شامخة، لها كبرياء وأنفة، ممتلئة في غير قُبح ومشدودة في دلالٍ، قوية، عفيَّة، تقتحم نظراتك بغير غلظةٍ ودون عنف، وتملأ عينيك بكل ثقة وكبرياء.

شعرتُ لحظة خاطفة أنني أريدها الآن وفورًا وبلا إبطاء، أريد ان أطفئ بين جناحيها ثورة غضب يائس لا حدود له، وفشل ذريع أشعر أنني مُنيتُ به في حياة لم يكن لي فيها خيار، بل دفعتني الظروف إلى حيث سارت الريح فسرتُ معها، ما معنى الحياة ما دمتَ لم تُدبِّر لنفسك وتحدد لمصيرك وتسعى لتحقيق ما تريد؟ وما معنى أن تُحاكَم الآن لشيء لم تفكر أصلًا في عمله؟ قد يكون تقصيرًا منك أو قد يكون غباءً أو هو مسلسل فشل يحاذي خُطواتك في الحياة، لكنها أبدًا لم تكن عن نية مُبَيَّتة أو قصد شائن، ربما أكون أي شيء وكل شيء لكنني محال أن أفكر في هذا البلد بسوء أو أُضمر له الشَّرَّ، الوطنية التي يحكون عنها ليست في الأغنيات ولا الخطب ولا كلام العامة لكنها في الأفعال وبخاصة وقت الجد وهذا ما رأيته وخبرته عن نفسي رغم كل شيء وأي شيء.

شعرتُ بدوار يشدُّني وسط دوامة حيرة وقلق وخوف لا أدرك لها معنًى ولا سببًا ولا مغزًى ولا أي شيء، هو فراغ جامح يحيط بي، وصخرة بليدة صماء في رأسي تُسمى عقلًا، وعينان ينظران ولا أرى بهما

إلا الموت، الموت يحيط بي باسمًا متأنقًا وسيمًا يدور من حولي يرقب جسدي أو لنقل الفريسة التي ينوي التهامها متى شاء، يقيس حدودها وأبعادها ويرتب لطريقة التهامها ويُحدِّق إلى عينيَّ، يسألني: كيف أحب أن أموت وبأي طريقة أريد؟ وهل أُفضِّل أن أنهيها كما أشاء وقتما أشاء، أم أترك الأمر له يُدبِّره مع إخوان الشياطين الذين يحاكمونني هنا؟

بعينين زائغتين حدقت إلى ما حولي وأنا أحاول الإفلات من وساوسه وهمساته، متباعدًا عنه قدر استطاعتي إلى أقصى ما أستطيع، ولم يكن أقصى ما أستطيع هذا إلا حرف السرير المواجه للحائط، اندفعتُ إليه لُذتُ بصدره الحنون، لسعتني برودة الجدار فارتددتُ واجفًا لتتلقاني الفتاة بيدين ملتاعتين وعينين كأنهما بئرا ماء يسقيان العطشى، وكنتُ بحاجة لهذا الماء، ارتميتُ بين ذراعيها لاهثًا، أحاول الكلام فلا أجد الحروف، وأبتغي الدفء فلا يحتويني إلا البرد، وأطلب العون فلا أجد إلا مزيدًا من الألم.

- ما بك؟

أنَّى لي أن أجيب، غمستُ رأسي في صدرها أكثر، احتوتني بحنانها، رويدًا عاد الزمن يسير رويدًا كأنه لم يهرول منذ لحظات إلى حافة الموت، رفعتُ عيني إليها، شعرت وهلة لا أدري كيف أنني أريدُها الآن، أريدُها بنظرتها الدافئة وثدييها العفيين وقوامها الرشيق، أريد شفتيها الرقيقتين اللتين تنبع من تفتحهما روائح الجنان.

- هل أُحضر الغداء؟

حـدقتُ إلى بيـاض وجههـا، وصـوتها الـشديد الـدفء، وعُـدتُ أضمُّها بقوة بين يدي شاعرًا برغبةٍ عارمةٍ لاحتوائهـا ولولـوج روحهـا واستنشاق عبيرها، واقتحام مكمنها الآن.

هل هو تسليم بمصير لا فكاك منه، أم هو محاولة هروب من خطر داهم يتعقبني بالانغماس في شيء ما؟ أي شيء يبتعد بي ولـو قلـيلًا عـن الانتظار القاتل الذي يحتلني منذ خرجت مـن سـاحة المحاكمـة، ذلـك الانتظار المُغلَّف بالظلمة، والذي يعلوه إقرار بنهاية لا محيد عنها، الشيء الذي يحزُّ في نفسي أن تنتهي مسيرة العطاء للبلد بكل ما بذلته فيهـا مـن جهدٍ وإخـلاص وتفـانٍ في العطـاء بهـذه النهايـة، وأن أوصـم بالخيانـة والإهمال والفساد وما إلى هذا من مسميات.

بيد تعالج ارتعاشة رغبـة محمومـة مـددتُ يـدي إلى رقبتِهـا، درتُ بباطن راحتي مع دورتها إلى أعلى وبدلًا من شدِّ وجهها نحـوي رأيتُنـي أنطوي بـين جناحيهـا، يـتلمَّس رأسي هـضبة النهـدين مـيممًا إلى بـراح الصدر، وأنطوي رويدًا، أنغمس بوجداني في لجة إحساس ناعم يأخذني أخذًا إلى حيث أجد سلوتي هناك راميًا بكل مـا في روحـي مـن مـشاعر وأحاسيس متضاربة وبكل ما في القلب من بـراكين مُتفجـرة وبكـل مـا يمتلك جسدى من أنين.

رأيتُني أُلقى بكل هذا من حـالق، وروحـي ينكـشف عنهـا الحـزن الداهم والوحشة الصارمة رويدًا، وأفلت من كل شيء إلا دفء الصدر وأمان الساعدين الذين امتدا في رفق ليحيطـا هـيكلي العجـوز برحمـة لم

أحلم بها في أشد أحلامي صفاءً، وبدلًا من التوهج والفعل مددت جسدي بجوارها، رأيتُني أنسى ما مَرَّ بخاطري منذ لحظاتٍ وما فاضت به خواطري، والأخيلة التي اجتاحت مُخيلتي لتريني كيف أنغمس فيها، أتشرَّب شبابها قطرة قطرة، وأرتشف من عسلها، وأذوب بروحي ووجداني ومشاعري في فيض حسنها، تُريني كيف أُذيب شفتيها الرقيقتين بين شفتي وأعتصرهما اعتصارًا، وأنا أهيمُ بين دروبها صعودًا وهبوطًا إلى أن أستقرَّ على قمة اللهفة، صاعدًا إلى أوج اللقاء غامسًا روحي كاملة في طياتها، محرزًا قصب النصر والفخار.

رأيتُني أركل كل هذه الصور بعيدًا، أو هي تنمحي لا شعوريًّا من رأسي، شاعرًا أن هذا الدفء مبتغايَ من رعشة برد جامح تجتاحني، وأتقوقع رويدًا بين يديها إلى أن أخذت وضع الجنين مغمض العينين راضي النفس هادئ النبضات راضيًا، وقد تلاشت بعيدًا كل آثام الوجود ومشكلاته ومتاهاته وشروره، إلى أن رأيت يدها تمتدُّ هادئة وتمسح عيني، بينما يدها الأخرى ما تزال تبثُّ دِفْأَهَا سخيًّا نقي الروح إلى جسدي المحتاج في تلك اللحظة إلى دفء وسلام الكون كله، تنبهت لنفسي لا أدري متى فوجدت بقايا دموع ما تزال تغطي وجنتي، وبعض الطعم المالح يلسع شفتي، اعتدلتُ مُحدِّقًا في عينيها بنظرات اعتذار، فاضت من حدقتيها نظرات شفقة هائلة وهي تهمس لي:

- تريد طعام الغذاء؟

لم أكن راغبًا في شيء الآن، كنت بحاجة فقط للغياب في متاهة نوم لعلني أقوم بعده مكتشفًا أن الأمر كله كان كابوسًا وانتهى على خير،

رغم هذا هززتُ رأسي موافقًا، ولم أجد ما أقول، فتمتمت بما ورد على خاطري فورًا:

- ما اسمك؟

- ثناء.

- ما مهمتك معي؟

- ما تريد.

- هاتي الطعام، بشرط أن تجلسي في مواجهتي وتأكلي معي.

وانتفضتُ من مرقدي إلى الحمام، رغم نفوري من الماء البارد كنت بحاجة إليه الآن، بحاجة له ليطلق سهامه في أنحاء كياني، برودته كانت كافية لترويض حرارة جسدي خاصة الآن، المحاكمة الجارية تحتاج إلى تركيز وتدقيق وفحص لكل كلمة تُقال، مواجهة ممثل الادعاء المتولي هذا بعينيه الوحشيتين وصوته المريع تحتاج أن أصهر روحي في بوتقة صحو ويقظة لا تغيب، أما الالتفات لأشياء أخرى تشتت الجهد والفكر فليس له معنى ولا هدف سوى الاستسلام لمصير محال أن أفلت منه إلا بقدر في الغيب حتى الآن لا أدريه ولا أرى له تباشير أو علامات.

كان الطعام بسيطًا كما تعودتُ منذ جئتُ إلى هنا، قطعًا قليلة من الجبن مع بعض العسل والخبز وكوب الشاي ثم لا شيء.

جلستْ ثناء أمامي، بهدوء تناولت الخبز وبدأت كأنها منذ زمان تعرفني وتعيش معي، تهمس بكلماتٍ عادية عن الطقس بالخارج، وظروف الحياة بالمدينة، وبعض مآثر سكانها، وما تراه لإصلاح بعض العيوب هنا أو هناك، ثم عرجت على عائلتها العريقة في المكان، بجذورها الممتدة العمق في تاريخ المكان، وفروعها المنتشرة في نواحيه كافة، وحينما انتهينا من الطعام انتبهت أنني لم أنبس بحرف مكتفيًا بالنظر إلى وجهها بنقاء بشرته والحمرة الخفيفة التي تهبه جمالًا خالصًا يفوق ما عداه بفضل قسماتها الطفولية ونظراتها المغسولة بالحياء ورقة حروفها لاهيًا بهذا كله عن حروفها وما قالته إلا بعض العبارات من هنا أو هناك، شاعرًا أن المرأة هي المرأة في أي مكان وزمان، سلاحها لسانها، ومتى انفعلت بخير أو شر انفجرت في الحديث دون أن يمتلك كائن ما إيقافها.

لا تصمت المرأة إلا إذا دبَّرت مكيدة ما، وهنا يكون الخوف منها، أما وهي تتكلم بغضب أو فرح فلا شيء هناك. هكذا شعرتُ لحظتها.

آويتُ إلى فراشي بانتظار الغد. همست تسألني إن كنتُ أريدُ شيئًا، أدرتُ وجهي عنها إلى الجدار، لم تكن بي رغبة لشيء إلا الانفراد بنفسي الآن، لا أدري هل هي التي أتعبتني أم أنا الذي أجهدتها معي؟ شكرتُها بكلماتٍ قليلة رأيت على أثرها نظرة عرفانٍ خاطفة لا تكاد تبين تطل من عينيها وتنمحي فورًا، ألقت تحية المساء وأغلقت الباب خلفها لأواجه الظلمة وحدي، أسير في متاهة ليل يحيط بروحي من كل الأرجاء،

ورأيتني أعودُ للأمس البعيد، أتـذكر بـداياتي منـذ سـنين عـدة لا أذكـر بداياتها لطول العهـد بهـا، فأنـا منـذ قمـتُ ومجموعـة الـشباب أيامهـا بالذهاب إلى قصر الحاكم السيد خميس وقررنا البقـاء أمامـه مـع إقـدام شابٍّ منا يوميًّا على الانتحار اعتراضًا على الظلم المتفشي والفساد السائد وإهمال العلاج والتعليم وما إليها من أسباب تدعو إلى الاعتراض.

أيامها كنا مجموعة صـغيرة لا تتعـدى العـشرين شـابًّا، جئنـا مـن حواري البلد وأزقته مندفعين بروح الإصلاح الحتمي والإرادة الـشعبية الجارفة، جمعنا هدفٌ واحد هو إبلاغ أعلى سلطة في البلد بما يجري، فـإن كان يعرف فسوف يسارع بتغيير سياسته، وإن كان لا يعرف وهذا محـال طبعًا فقد أطلعنـاه عـلى وضـع النـاس، وعليـه أن يقـوم بالإصـلاح أو يرحل.

أيامها فوجئنا بانضمام أطياف من الناس لم نكـن نعرفهـا، أو حتـى نظن أنها يومًا ستسعى للانضمام إلينا، أو حتى تشعر أن لهـا دورًا يمكـن أن تؤديه بأي شكل من الأشكال.

رويدًا رأينا أنفسنا محـاطين بأعـداد تـزداد يومًـا بعـد يـوم، إلى أن أصبحت المدينة كلها تكمن حول القـصر، تحـاصره وتـصرُّ عـلى تنفيـذ أوامرها وطلباتها، وانتهت فكرة انتحار شاب هذه السذاجة المفرطة منا، لتقوم مكانها فكـرة أخـرى هـي الهتـاف الـذي اشـتعل في المكـان دون توقُّف:

- الشعب يريد إسقاط الفاسدين.

الجميل في الأمر أن أيام الاعتصام هذه كشفت أشياء جميلة داخل كل منا لم يكن يلتفت إليها، أنا مثلًا اكتشفت قُدرتي على الخطابة والتأثير في الجماهير إلى درجة التوحُّد مع كلماتي، والاقتناع بما أقول، فصرت يومًا بعد الآخر أخطب فيهم شارحًا مساوئ النظام السائد، وانتشار الخرافات بدلًا من العلوم الحديثة، وتدهور التعليم الذي أفرخ عقولًا خاوية وأفئدة بلهاء وأيدي مرتعشة لا تبني أوطانًا، وأخذتُ أقارن بين الدين كونه شريعة لها قُدسيتها، وبين الدين كونه وسيلة للارتزاق والكسب من فئة اتخذته وسيلة للكسب على حساب السذج والمساكين الذين أسلموهم قيادهم وظنوهم الأقرب إلى الله ودينه من الجميع لما أبدوه من مظاهر الزهد والخشوع والورع، وحفظهم الآيات والسور وبعض الأحاديث المطلوبة للمهمة التي نذروا أنفسهم لها، ألا وهي اكتساب ما يستطيعون كسبه والسيطرة على البلاد والعباد لتحقيق مآربهم لا أكثر، ثم تحدثت عن الجهة المقابلة لهم وهم هؤلاء الناس الذين لعبوا اللعبة بلا رياء أو زيف فهم جشعون، ويظهر ذلك في تصرفاتهم وهم يريدون الكسب بأي وسيلة، وهذا واضح للعيان، وهم أهل سلطة وجاه وقوة، وهذا يعرفه الجميع ولا يحتاج إلى تفسير، ويقومون بأعمالهم جهارًا نهارًا، في قوة وقسوة، وبلا خوف، وهؤلاء رغم شرهم أقل شرًّا ممن يتمسح بالدين، ويتخذه وسيلة لركوب أعناق البشر وسلب أموالهم وخيرات بلادهم أيضًا، تكلمت عن هؤلاء وهؤلاء رافضًا سيطرة كائن ما كان على مقدرات الشعب، مطالبًا أن يكون الخير للجميع، مؤكدًا أن هذا لن يتأتى إلا بجلوس حاكم وطني

شجاع يعي جيدًا ما يجري حوله، ويكون مخلصًا حريصًا على الوطن وأبنائه، يكره الاستغلال ويمقت الخيانة والفساد.

ورأيتهم يشيرون إليَّ قائلين:

- أنت الحاكم المطلوب.

وعلت الهتافات التي هزت الأرجاء ووصلت إلى القصر، فدكَّت قلب ساكنه دكًّا، فهرب بليل تاركًا خلفه كل شيء، مكتفيًا من الغنيمة ببقاء دماغه فوق عنقه، لترتفع رايات الفرح والحبور، وتعلو هتافات النصر وتنتشر في كل البلاد من أقصاها لأدناها آيات الترحيب بالحاكم العادل الذي سيعتلي الكرسي، وهو فيه من الزاهدين!

وسُمي هذا يوم النصر، وتم جعله عيدًا قوميًّا تؤخذ فيه إجازة رسمية، وتُطلق فيه الأناشيد، ويعمُّ الفرح والسرور الأنحاء كافةً.

فما الذي جرى الآن؟ الكل هناك كان يبدي الفرح. يستمع لكلماتي في أي نائبة، ويقرأ تحليلي للأحداث مهما تكن ويقتنع بما أقول وينتهي الأمر. فما الذي جرى؟ وكيف يقوم هؤلاء الناس بمحاكمتي بذات التهمة التي وجهتُها لمن كان قبلي؟ هل صرتُ خميسًا جديدًا وأنا لا أشعر؟ أم أشعر ولكني أتلهى بعبقرية الحكم وإلهام الحاكم وما إليها من مسميات كنتُ أسمعها وأنتشي لها؟

المسئولون كانوا دومًا يرتجفون من كلماتي حينما أغضبُ على أحدهم، لذا كانوا دومًا يقولون ما يُرضيني.

- كل شيء تمام.
- الناس في الشوارع والحواري تمام.
- التعليم تمام.
- الصحة تمام.

وحينما تقع عيني على خطأ أصرخ في المخطئ، أذيقه ألوان الهوان قبل أن أطرده من مكانه، وأجيء بآخر يتحمل المسئولية عنه.

فهل كنتُ متواطئًا أم لاهيًا أم أن مرور هذه السنوات الطوال وأنا أعتلي الكرسي قد أدى إلى صدأ عقلي وشلل فكري وجمود في مشاعري وأحاسيسي فلم أرَ إلا ما يرون هم مكتفيًا بهذا وراضيًا وواثقًا أن لا أحد ينتفض ضد سياستي إلا المتآمرون الكارهون للعدالة والحق، وهؤلاء تقوم الجهات المسئولة بتعقبهم وحبسهم، أو الإجهاز عليهم؟

آه كم هو ثقيل هذا الليل. جفوني رغم ارتخائها فوق حدقتي كجبلين ثقيلين يأبيان عليَّ النوم. سأحاول ألا أفكر. ربما استيقاظ الذهن هو الذي يمنع النوم. سأحاولُ ألا أفكر. أغوصُ رويدًا في عالم النوم، و.....!

رأيتُني في الساحة من جديد، ذات الساحة التي شهدت يوم محاكمتي الأول، لكني هذه المرة مصلوب وسط الساحة، بين يدي جلادين عمالقة، والدماء تتساقط من يدي وقدمي اللتين ثبَّتوهما مكانهما بالمسامير، كانوا يحملون سياطًا ساخطة لا تهدأ صرخاتها وعويلها وهي

تتلوى في الهواء، قاطعة الزمن والمكان، قادمة إلى جسدي في عنف يدفعني دفعًا للصراخ من قلب القلب، ومن أعمق أعماق الروح، والجماهير ملء الساحة تنظر ساخرة، راضية عما يجرى لي، وهتافاتهم تشق الفضاء:

- الشعب يريد إعدام الفاسد.

والسيد سليمان حاكم المدينة الذي وليته هذه الوظيفة يومًا، ويفترض فيَّ أن أكون ولي نعمته يهتف معهم، وأنا محني الرأس، مسندًا إياه على صدري، لا أمتلك النظر إلا إلى ما تحت قدمي، حيث المقصلة المعدة لتنفيذ حكم الإعدام الذي لم يغب كثيرًا، إذ انطلق الصوت الغاشم الحانق من العينين الوحشيتين لممثل الادعاء المتولي معلنًا للعامة الخبر الذي يترقبونه بكل الشغف والشوق، وما إن يعلو صوته بالحكم حتى تنطلق في ظلام الليل أضواء الشماريخ وألعاب الصوت والهتافات والزغاريد، وتدقُّ الطبول ترحيبًا به، بينما يتم نزع المسامير عن يدي وقدمي، وإنزالي عنوة مجرورًا من ساقي إلى أدنى، حيث توضع رقبتي تحت المقصلة التي أغلقت جزءيها، وأحكم الغلق على رقبتي، وأنا أتحرك مطاوعًا لهم، ناظرًا إلى ما يجري كأنني روح أخرى ترى وترقب دون أن يكون لها دخل أو تأثر مما يجري، وقد تحوَّل الألم الكاسح المُتعملق إلى أمر عادي أو هو قدر مَحتوم رضيَ به جسدي بعيدًا عن إرادتي وأمري، مُحنيًا رأسي خاضعًا خاشعًا أنتظر التنفيذ، في هدوء لا أدري من أين أتاني وكيف.

حتى في اللحظة الرهيبة التي دوَّت في أرجاء روحي عَتيَّةً غاشمة، والتي ارتطمت فيها البلطة برقبتي لتفصل رأسي فورًا عن جسدي كانت الرأس تتدحرج مفتوحة العينين، ذاهلة النظرات، متسعة إلى أقصى مدى اتساعها، محدقة في سواد الوجود حولها، لا تدري هل تفرح لمبارحة هذا العالم بكل شروره، أم تحزن للمغادرة على هذه الصورة؟

ولحظتها بالذات مرت في خاطري كل سنين عمري في شريط واحد هرول مارًّا أمام عيني، واضحًا جليًّا بكل تفصيلاته وأحداثه في أجلى صورةٍ وأكمل بيانٍ، إلى أن رأيتُ جسدي بلا رأسٍ مُلقًى تطؤه الأقدام.

أفزعتني الصورة في تلك اللحظة وتفجرت مشاعر الألم والشقاء وفاضت ينابيع الأحزان كاسحة، وصرختُ بأقصى ما أملك من أنين وبحر الدماء الجارية تحت الأقدام ينشب أنيابه العاتية في روحي.

آاااااااااااااااه!!

انتفضتُ من رقدتي مُتسع العينين، مُستعيذًا بالله، خارجًا من بوابة الجحيم وأتون نارها لاهث الأنفاس، أُحدِّقُ إلى المكان حولي، أتشمَّم رائحة الحياة من جديد مديرًا عيني في جسدي وأطرافي، متحسسًا رأسي، أدور بنظرات هلع واجفة في أرجاء الغرفة، وحينما تهدأ نبضاتي وتخمد فورة النيران في جسدي، أهبُّ من مرقدي مبتعدًا عن السرير، متباعدًا عما رأيته على أديمه وبين يديه وفي أحضانه، متوجسًا من معاودة

الاقتراب منه، أتَّجه إلى المائدة وأجلس على أحد مقاعدها في انتظار الصباح.

وفي هذه اللحظات تبدو لي الحياة بلا زيف صبغتها الذي يلون وجهها خاوية من الجمال، مليئة لحافتها بقبح وجهالة عجوز شمطاء واسعة الحيلة، تعرف كيف تصطاد ضحاياها، وكيف توقع بهم بتلونها وتبرُّجها وغنج حروفها، حتى إذا ما أمنوا لها واحتضنوها أفاقوا على حقيقة لا مراء فيها، وهي أنهم تلفعوا بشرها وحقدها وكراهيتيها حتى لنفسها.

وأعود إلى نفسي متسائلًا في جدٍّ: كيف خُدعت بها إذا كنت أعرفها؟ إذا كنت رأيتُها وسبرتُ غورها ورأيتُ بعين البصيرة حقيقة صورتها، فلماذا وقعتُ بين براثنها، واستسلمت لإغرائها، وقبلت أن تطويني بظلام جناحيها وقبيح ريحها؟

ولا أجد جوابًا إلا النسيان أو التلهي بالمتعة الطارئة اللحظية الزائفة والزائلة عن الحقيقة المؤكدة، وميل نفسي إلى اللهو والتيه بروعة السراب الخادع وفرحة امتلاك ما لا طاقة لمخلوقٍ بامتلاكه، حينها تبدو لي اللحظات شبكة ممتدة في عُمق الروح، تنزع من براءتها قطرة فقطرة مدى حياتها على الأرض، ويبدو الكون حولي حلبة مصارعة دموية جائزتها الكبرى قبض الريح!

أستدير مُحدِّقًا في السرير السابح في ملكوت سكونه راضيًا بعتمته الناشرة في أفق الحجرة هدوءًا ناعمًا، والدولاب الصغير على مقربة منه

محتميًا بالجدار ناعمًا بالعزلة، والمائدة المستديرة ذات الإطار الخشبي المغطى بالغطاء الأبيض الرائق البياض وعليه بقايا طعام العشاء والتي تركته ثناء قبل أن تغادر هامسة أنني ربما أحتاجُ إليه ليلًا، أراهم يتقاربون محدقين إلي، محاصرين جسدي المضغوط بينهم، وأنا لا أمتلِكُ المقدرة على الصراخ أو الإفلات من كيدهم المقيت، أبحثُ عن نسمة هواء أفلتت من قبضتهم لترد لي الحياة، فلا أجد إلا مزيدًا من الضيق، أهبُّ من مجلسي دائرًا في فراغ الحجرة لا أدري ماذا أفعل بنفسي ولا ماذا تفعل نفسي بى. لا جدوى من أي شيء.

أرتمي على المقعد من جديد، محدقًا إلى الباب، مترقبًا من تحت عقبه خطوات النهار التي لا بد ستجيء، أنتفض والباب يفتح سامحًا للنهار باقتحام المكان ناشرًا ضياءه في أركانه، غير عابئ ببقايا العتمة الكامنة هنا وهناك، وأرى وجه ثناء فأشعر بشعور المدفون في قبره الموقن بالهلاك، واثقًا أن لا أحد سيسمع له أو يلبي استغاثته، ثم يُفاجأ بمن يفتح ويقول له: اخرج آمنًا إلى النور، أحدق إلى عينيها الدافئتين ووجهها الذي كسته شمس الصباح حُمرةً نقية هادئة حالمة زادته حسنًا على حُسن.

- صباح الخير.
- صباح الخير.
- وجهك يشي بإرهاقٍ.

- فقط؟

تشاغلت عني بفحص المكان وترتيبه، جاء طعام الإفطار ووُضع على المائدة، جلست قُبالتي مُحدِّقة إلى وجهي بنظرات جديدة لم أرَها منذ عرفتها حتى الآن، نظرات فيها شفقة – ربما – لا حد لها وهي تدير عينيها صاعدة وهابطة على جسدي المكوم على المقعد منذ منتصف الليل، وقد تقوَّس على المقعد دون أن أنتبه له إلا حينما رأيتُ عينيها تحوطانه بدفء النظرات، حاولت الاعتدال قدر المستطاع.

– تشعر بالمرض؟

– لم أنم إلا قليلًا.

– هل أستطيع المساعدة؟

لأول مرة منذ حدث ما حدثَ شعرتُ برغبةٍ في الابتسام. ابتسمت، أو هكذا خُيِّل إلي. لا أدري هل بدت البسمة على شفتي أم أبت أن تخرج إلى الوجود.

كانت عيناها تحوطانني بفيض حنوها مما أشعرني بشيء من العرفان، إذ يكفي والكون يدهمك بثقل أقدامه ووطء ظلمته، وجسامة حوادثه وملماته أن ترى نظرة ودٍّ أيًّا كان مصدرها أو سببها، يكفي أنها مشاركة من روح أخرى شعرت في تلك اللحظة بك وتألمت من أجلك.

رميتُ بروحي في براح نظراتها، عيناها في أعماقهما روح تنبض ببراءة داهمةٍ تأخذك رغمًا عنك وترويك من نبعٍ صافٍ.

- متزوجة يا ثناء؟

- لا.

- احكي لي عن نفسك.

تزدهر زهور النظرات بنشوة الدهشة وهي ترى كهلًا لا أمل في نجاته يبتعد عن نفسه بالقدر الذي يقترب حسيسًا منها.

- أعيش مع أبويَّ في ضاحية المدينة، والدي رجل بسيط يعمل في متجر لبيع حاجيات المنازل، ووالدتي بائعة في متجر للأدوات النسائية، أما أنا فبعد انتهاء دراستي تم تكليفي كمثل غيري من فتيات المدينة بخدمة المجتمع مدة عام.

- خدمة المجتمع؟

- نعم، خدمة إلزامية للفتيات، مساوية للخدمة العسكرية للشباب.

- وهل ما أنت فيه الآن خدمة مجتمع؟

- نعم.

حدقت في الدولاب المغلق متفكرًا فيما قالت، متسائلًا: كيف خفي عني هذا الأمر؟ ومنذ متى وهم يكلفون الفتيات بأشياء كهذه؟

أعرف أن هناك فتيات لخدمة الضيوف الكبار، مهمتهن إرضاءهم والتسرية عنهم، وكثيرًا ما استخدمن بغرض التجسس ومعرفة الأسرار، برضائهن أم تحت ضغوط، أما البقاء مع المساجين!

همستُ لنفسي أن هناك أشياء كثيرة حولي لا أعرفها ولم تخبرني بها التقارير والأخبار، قلتُ بثقةٍ إنه مهما تكن دقة الملفات والأوراق والعيون البصاصة فلن تكون أفضل من عينيك أنت، ورؤيتك أنت، وخبرتك أنت لتكون قادرًا على إبداء الحكم الصواب، أما وأنت مكانك فلن تشعر بشيء، ولن تدرك أبعاد ما هنالك مهما تُؤتَ من ذكاء.

- مرتبطة يا ثناء؟

- نعم، مخطوبة لموظف في مكتب خاص للمحاسبة.

- لماذا خاص؟

- الحكومة أبوابها مغلقة إلا على موظفيها وأبنائهم وأقاربهم.

صمتت قليلًا وهي تُحدِّق إلى عيني، كأنما اندفعت في قول لا يليق بها قوله، ثم استطردت بصوتٍ خافتٍ:

- أعتذر إليك فلم أقصد.

عدتُ للابتسام مرغمًا، وأنا في حالتي تلك تخشى منى!

- لماذا الاعتذار؟ لكن قولي لي...

- تفضل.

- لماذا اختاروكِ أنتِ بالذات لمرافقتي.

- لأنني حاصلة على دورة تدريبية في السيطرة والتحكم.

- لا أفهم.

- هي دورة من دورات عدة، لكنها مخصصة للتعامل مع ال..!

- ال..ماذا؟

- الذين.. يعني..المدينة تراهم..!

- تقصدين المتهمين أمثالي؟

هزت رأسها في حياء، ووجها الأبيض يتحول إلى لونه الوردي المحبب لعيني، فتبدو في سِيماها وعُمق عينيها ملائكية شفافة، ناصعة، مبهرة، حاكمة، مسيطرة بوداعتها ودفئها، والسلام الذي يغلف روحها، ويفيض من خلال حدقتيها المستترتين خلف الأجفان حياءً وخجلًا.

- هل تسمح لي بسؤال؟

أرخيت جفوني مرة أو مرتين هامسًا:

- طبعًا.

- هل فعلتَ كل ما يُقال عنك؟

- وما الذي يُقال؟

- أراكَ مُختلفًا عما قيل.

- كيف؟

- روحك فيها هدوء نسمة رخاء، وكلماتك فيها رقة وصفاء، ونظراتك لا توحي إلا بالرفق، حتى حينما فكرت أن تقربني لم أكن أستطيع أن أعلن الرفض، ربما خوفًا من المسائلة أو محاسبتي أنني لم أؤدِ خدمتي كما ينبغي، وأُقدَّم للمحاكمة وحينها سوف يضارُّ والدي معي، لكنني فوجئتُ بك كأنك خشيتَ أن تجرحني أو نظرتَ لي كابنتك أو شيء من هذا، واكتفيت بإراحة رأسك على صدري، ورأيتُك ترتعد ودموعك تغرق وجهك، صدقني لحظتها لم أشعر أنك غريب متهم محكوم عليه ومطارد بل شعرت أنك..أبي..أنا آسفة لهذا التشبيه.

- أقول لك سرًّا؟

- تفضل.

- كلامك جعلني أجوع وأتوق توقًا إلى الطعام، هيا.

- لكني!!

- هيا يا بنتي، هل تعرفين أن لدىَّ ابنة في مثل عمرك تركتها في القصر؟

- متزوجة؟

- ولديها طفلان.

- تعيش معك في القصر؟

- نعم، هكذا أمرت، لها سكنها الخاص لكنها لا تذهب إليه كثيرًا.

- لا أفهم.

- عمل زوجها بالتجارة يجبره على السفر الكثير والمبيت في بعض الأحيان لذا طلبت أن تبقى معنا ومتى عاد زوجها يمكنها أن تعود معه.

- سيدي.

- نعم.

- هل أنت..أنت؟

- لا أفهم.

- محال أن يكون ما قيل عنك صحيح.

- وهذا أروع ما نلته في حياتي من تقدير!

ومددت يدي عبر المائدة أربت على يدها في حنان، دق الباب دقات أعرفها جيدًا، ودخل الجنديان المكلفان باصطحابي إلى الساحة الكبرى بالمدينة، تبسمت لمرآهما للمرة الأولى منذ حدث ما حدث، الوجهان يتكلفان الصرامة والجد رغم ما يبدو عليهما من بساطة العامة وسذاجتهم.

- تشربان الشاي معنا؟

حدق كلاهما إلى عيني متوجسًا، قدرتُ في نفسي أنهما حسباني جُننت، لم أبالِ بما يريانه فيَّ وصببت لهما الشاي، إلا أنهما رفضا تمامًا وأشارا عليَّ بالتحرك فورًا لأهمية الأمر، ودعت ثناء، لا أعرف لماذا، احتويت يدها الصغيرة بين يدي هامسًا لها بكلمة شكر بسيطة على لُطفها ورِقتها، ومضيتُ إلى الطريق.

العربة المغلقة الأبواب والنوافذ مضت بي كعادتها بطيئة إلى حد الموت، بينما الحارسان من حولي قد أراحا سلاحهما إلى جانبهما في هدوء ودون أن ينبسا بحرف، بينما العتمة تفترش المكان موحية بنوع من سكون ما قبل العاصفة كالمعتاد، إلا أنني مرة واحدة رأيت العربة تهتز بشدة، والباب من أثر الهزة يفتح بقوة ضاربًا جدارها، ويبدو الطريق الذي لم أرَه منذ أتيتُ إلى هنا، ترنَّح الجنديان في مكانهما ووقع السلاح مما أفزعهما فاضطربا، وحاولا السيطرة على الموقف سريعًا، بينما أنا في مكاني أُحدِّق إلى ما حولي بعينين محايدتين، ودون أن يطرف لي جفن، لا أدري لِمَ، ربما لأنني أعرف جيدًا أنه لا مجال للهرب، فالمدينة كلها كما يبدو تحمل عداءً لي، ومهما أتغير أو أبدل ملامحي فليس هناك مجال للهرب إلى مجهول لا أعرفه، ولم أعد أرغب في ملاقاته والتعامل معه، لم تعد المغامرات تستهويني، وحتى النجاة من الموت المتربص بي هنا لم تعد لها أهميتها كما كنت من قبل.

هل هو زهد في الحياة؟ أم هو تسليم للقدر؟ أم رفض لنمط لم أعد أرغبُ فيه؟ لا أدري بالضبط، ولكني أشعر خاصة الآن بنوع من السكينة يشمل روحي، ويفيض على عيني وسماتي.

انتبهتُ لعيني قطٌّ أسود كبير كان يعتلي سطح بيتٍ مُقابلٍ للعربة تحدقان إليَّ لحظة فتح الباب بالضبط، رأيتُ العينين تتسعان والوجه ملامحه تنقبض، ويتوقف عن الحركة محددًا اتجاه نظراته على وجهي، يستدير متجهًا إلى أدنى بدلًا من مواصلة السير على السطح ويختفي عن

عيني، لم أعطِ هذه الملاحظة أهمية، اعتدل الجنديان، تمالكا نفسيهما، قبضا على سلاحهما بقوة بعدما أغلقا الباب وأحكما رتاجه، أكملت العربة سيرها حتى وصلت إلى الساحة، وتم اصطحابي إلى القفص الحديدي من جديد، كانت الوجوه كما رأيتُها أول مرة متربصة الأعين، منفلتة الألسنة، حادة السباب، بينما الرجل المتولي وحشي النظرات ينظر نحوي بعداء قاهر لا حد له، وحاكم المدينة السيد سليمان على كرسيه الذي تعطفت وأجلسته عليه متسامحًا معه وعافيًا عن أخطائه التي أبلغتني بها الأجهزة الرقابية وواجهته بها قاصدًا عزله ومحاكمته، لكنه تذلَّل وتعطَّف وتوسل أن أعطيه فرصة أخرى ولن أرى منه إلا الخير، وهأنا أرى منه ما لم أحلم برؤيته من قبل!

غريب أمر هذا الإنسان، لا ينهش إلا اليد التي تمنحه وتترفق به، أما اليد العصية القاسية الفطرة فيهاب الاقتراب منها ويبتعد عنها خوفًا من بطشها، ودومًا لا تأتى المصائب إلا من القريبين منك الذين توغلوا في خصوصيتك، وعرفوا ما لم يعرفه الآخرون، ومن هذا المنطق يهاجمونك ويتربصون بك لمعرفتهم الجيدة من أين يهاجمونك وكيف.

قام ممثل الادعاء المتولي من جديد متأججًا مُوجِّهًا أتون نيرانه نحوي:

- اليوم أيها السادة نتكلم عن ركن آخر من أركان الفساد العديدة لهذا المتهم الماثل أمامنا وهي فساد الإعلام، هذا الجهاز الشديد الحساسية لأي بلد، والذي من خلاله يمكن توجيه الرأي العام،

وتحديد ذوق الشعب، وتشكيل شخصيته وتصرفاته، فلم يعد هو المتفرد برؤيته وأهدافه النبيلة كما كان سابقًا في عصور أخرى، بل صار مطية للفساد في الذوق، والانحطاط في الأخلاق، وانهيار القيم، بما مهد لإفساد الذوق العام، وانحطاط القيم، وتحويل الشعب المتدين بطبعه والمحافظ بفطرته إلى شعبٍ لاهٍ بعيد عن الدين والقيم، يهتم بتوافه الأمور، ويترك جسامها، تؤجج نيرانه مباراة كرة، فيثور لأجلها ويتعارك ويشعل الحرائق بسببها، وتعتدي دولة خارجية على حدوده فلا نراه يأبه أو يتساءل: كيف سنعالج الموقف؟ وكل هذا بسبب السياسة الإعلامية المُوجَّهة، التي كان هدفها غير المعلن إبادة روح هذا الشعب للسيطرة عليه، ومن ثم إطالة أمد حكم فاسد، وإلا فما معنى أن نسمع في إحدى التمثيليات ألفاظًا يُعاقِبُ عليها قانون العيب، ألفاظًا تدخل البيوت وتصفع آذان الأطفال والنساء بكل بجاحةٍ وبرود.

ماذا تقول أيها المتهم وأنت رأس الفساد؟ وماذا يمكن أن تقول أو تدافع أو حتى تفكر في الإنكار؟ ماذا يمكنك أن تقول؟ أريد ان أسمعك، أريد أن أجد مبررًا واحدًا يمكنك أن تنطق به.

تعالت هتافات الخلق المتراصِّين في تلاحُمٍ شديد في أرجاء المكان:

- يسقط رأس الفساد.

- الإعدام لرأس الفساد.

أشار السيد سليمان بيده مرات لإعادة الهدوء للمكان استعدادًا للتحدث، إلا أنه انتفض في مكانه بقوة ناقلًا ثقل جسده على قدميه

بالتبادل، ورأيتُ المتولي ممثل الادعاء يفعل مثله، وسَرَت العدوى إلى بقية الشخوص المحتلة للساحة كلها، وارتفعت أصوات استغاثة مُبهمة، وأخذَ البعض يُهرول، يتصارع من أجل الفرار، والجند يحاولون التشبث بباب القفص وهم يتقافزون في أماكنهم، والسلاح يعوق حركتهم، ورغمًا عنهم يبتعدون وهم يدقون الأرض بأقدامهم بقوة، والقفص يفتح وعشرات القطط تتحرك في سرعة ودربة عالية هنا وهناك، مسيطرة على الموقف تمامًا بعد أن تحكمت في الجند المنتشر في كل مكان أعلى البنايات المحيطة، وخارج الأسوار وداخلها، وحول القفص والسيد سليمان والمتولي.

وقفتُ مُحدِّقًا إلى ما يجري منتظرًا نهايته، غير مبالٍ بما يجري، شاعرًا أن الأمر كله لم يعد يعنيني، انتبهتُ إلى القطط تفتح لي طريقًا بين الخلق الفارة، وتقدمتني إلى باب الخروج بين الهرج الحادث والفوضى الضاربة بثقلها في أرجاء المكان. بثقة وهدوء تحولت هيئتي فورًا إلى قِطٍّ يشبههم تمامًا، وانطلقت وسطهم إلى الباب الخارجي وهم يسيرون أمامي، خطواتهم مُتجهة إلى طريق لا أدري إلى أين، أسير بينهم وقد توقف إدراكي أمام شيء واحد هو وجوب طاعتهم والانقياد لهم وسط هذا الطريق المترب المهجور الذي لا يبدو له انتهاء، والذي لا يوجد فيه إلا تراب، وأفق يعلو غباره بلا توقف، وسماء زُرقتها حانية، وصمت لا تقطعه إلا أصوات الحركة الممتدة بلا توقف، إلى أن رأيت الطريق الرئيسي السريع الذي يربط المدن بعضها ببعض، عرفته فورًا وغزا قلبي شعور جامح بالنجاة.

الكشف الجديد

بدت عربات القيادة في ركن من الطريق هَرِمَة الروح، كسيرة النفس، مفتوحة الأبواب، رأيتُ على البُعد العيون مجهدة، والوجوه مُصفرَّة، والأجساد على ما يبدو منهكة، أشرتُ إليهم بيدي بكل ما أوتيتُ من أمل، أطلقت صوتي رغم الوهن والتخاذل الذي يمتلك روحي من طول المسير ومن المعاناة التي لم يعد جسدي يتحمل جهدها، هتفتُ مرات عدة قبل أن ينتبهوا لي، تتهلل الوجوه، يتحول السكون المهيمن على المكان إلى فوران، تتفجر الأرض بالحركة، أرى وجوهًا هشَّت لرؤيتي، هبَّت واقفة تؤدي التحية، متسائلة: أين كنت؟ وكيف نجوت؟ ومُهنئةً على السلامة والنجاة من العاصفة.

رغم الفرح الجامح بوصولي إليهم أو وصولهم هم إليَّ، حدقت إلى الوجوه صامتًا، شاعرًا أنني لا أريد الانغماس في أحاديث أعرف أنها

زائفة وبلا معنى، أخذتُ أرقبُ الأعين باحثًا عن الصدق في طياتها، دون جدوى.

أحنيتُ رأسي شاكرًا لهم كلماتهم الطيبة في كلماتٍ قلائل، سألتهم: كيف نجت القافلة؟ وهل هناك مفقودون أم لا؟ استمعتُ إليهم راغبًا عن الانتباه لما يقولون، بعدها طلبت الاجتماع فورًا برؤساء أركان الجيش لبحث التحرُّك إلى المدينة التي تركتُها توًّا (مدينة العيون)، والتحفظ على حاكمها السيد سليمان وكذلك ممثل الادعاء المتولي ذي العينين وحشيتي النظرات!

بدت البهجة التي خامرتني بالعودة لمكانتي وسلطاني من جديد بهجة باردة مثلجة القلب لا إحساس فيها، كذلك الأشياء بعد عودتي بدت مختلفة غاية الاختلاف عما كانت وأنا طريد ومتهم ومعرض للموت، شعرت أن الظلمة التي كنتُ فيها قبلًا قد أشرقت وصارت نورًا لا يغيب، والأفكار التي كنتُ أعتنِقُها وكنتُ أدورُ في فَلَكِها تحرَّرت عن ذي قبل، رغم أن سماتها وهيئتها الكئيبة ذات الوجه المنكسر والقسمات الذليلة الخاضعة المستكينة تحوَّرت إلى هيئة أخرى سماتها تفور بالكبرياء والعظمة والألق الدائم ليل نهار والعنفوان والقوة التي لا بد منها لمواجهة الأمور كما ينبغي لك أن تواجهها.

الشيء الذي أراحني قليلًا أنني كنتُ أعي تمامًا هذه النقطة بالذات، فمناقشة أمر من الأمور وأنت تعتلي الكرسي الكبير تختلف تمامًا عنك وأنت لا تمتلك الجرأة على نُطْقِ ما تريد، وتخشى العقاب الذي يترصَّدك ويُحْدِق بك وينتظر منك هفوة ليلتهمك بلا رحمة.

الكرسي العالي له هيبة وصولجان، ويمنح صاحبه مهما يكن هذا الصاحب كيانًا آخر غير كيانه الإنساني البسيط، فتراهُ الأعين من خلال منظار مُكبِّر، وتعامله من خلال ذات المنظار، فهو القادر بحُكم منصبه على حل أعتى الألغاز، وهو القادر على مجابهة التمرد مهما تكن بواعثه وأساليبه، ويصدر القرارات مهما تكن قسوتها وجفافها وربما ظلمها وظلمتها، عليه أن يفعل هذا وإلا اتهموه بالضعف والخوار وعدم المقدرة على أداء عمله بكل تَبعاتِه وخَطرِه.

المشكلة أن الإنسان مهما تكن درجة نقائه وميلِه إلى العدل والمساواة يجد نفسه مندفعًا بفعل تيار جامح لا سبيل إلى الفِكاك منه للتعامل مع معطيات أخرى وأفكار مختلفة، ربما لو خُيِّر أمامها ما اختارها ولا فكَّر فيها، ولكنها السكرة التي تأخذ النفس في دوامتها وتطرحه حيث شاءت فلا يرى إلا بعينيها، ولا يسمعُ إلا بأذنيها، ولا يحسُّ إلا بإحساسها، وهي أيضًا المهنة التي رغم زهوها وبهرجة ألوانها وروعة معيشتها محفوفة بمخاطر فقد الشخصية الحقيقية البسيطة السابقة، والتي مهما يحاول بعد تقاعُدِه أن يستعيدها لا يستطيع.

تم الدفع بقواتٍ من الجيش إلى المدينة فورًا والنجاح في السيطرة على كل ركن فيها بسهولة ويسر كبيرين وبلا أي مقاومة تذكر، وتم التحفظ على حاكمها السيد سليمان والمتولي ممثل الادعاء المجنون الذي ذبحني بكلماته ونظرات عينيه الوحشيتين، وفي الوقت ذاته زُينت الشوارع والساحات وخاصة الساحة الكبرى بالأعلام ولافتات

الترحيب بمقدمي الميمون وكأنني لم أكن منذ ساعات مجرمًا يطلبون القصاص منه!

أما السكان فقد تم منحهم إجازة رسمية لاستقبال صاحب الكرسي العالي، والترحيب به. وفي الموعد الذي تم تحديده، ووسط حراسه أفراد الشرطة الذين انتشروا على طول الطريق، وعربات الحراسة المخصصة لمرافقة الموكب. توجهتُ إلى الساحة الكبرى والتي جرت فيها إجراءات المحاكمة من قبل.

كنتُ طوال الطريق أخشى أن يتظاهر السكان رافضين زيارتي، أو يقومون بمقاطعة الدعوة ولا ينزلون إلى الساحة، مُعلنين العصيان المدني في صمتٍ قاطع حاسم، مُعلنين رفضهم لحُكمي، ولما سمعوه ورأوه من كلماتٍ عن الفساد والظلم الذي اقترفتُه طوال فترة حُكمي.

كنتُ أناقشُ نفسي وأُجادِلُها في كيفية التعامل معهم إذا حدث هذا، وكيف أُضيِّق عليهم حتى يعودوا للطاعة بلا قيدٍ ولا شرط. وحينما اقتربت الساحة الكبرى وقبل الدخول تساءلتُ عن عدد الموجودين، محاولًا بتر آيات القلق المرتسمة على مُحيَّايَ، جاء الرد حاسمًا:

- الساحة ممتلئة عن آخرها.
- كلهم يهتف بحياة صاحب الكرسي:

(بالروح بالدم نفديك...)!

محوتُ علامات الدهشة التي اكتسحت نظراتي ودخلتُ مرفوع الرأس، دائرًا بنظراتي على الوجوه والأعين المُحدِّقة، موزعًا بسماتي الواثقة عليهم في رَويَّةٍ وهدوءٍ كما كنتُ أفعلُ كثيرًا من قبل، بعدها جلستُ على الكرسي الخاص بحاكم المدينة، ناقلًا نظراتي من جديد بين الوجوه المتلاحمة الناطقة بالفرح والسرور لنوالها شرف حضور حفل كبير تاريخي، يشرفه صاحب الكرسي الكبير.

لدهشتي رأيتُ ذات الوجوه اللاعنة لشخصي منذ حين هي التي تهتف بكل الحماسة الآن!

طلبتُ حاكم المدينة السيد سليمان، جاء محني الرأس خجلًا بين حُراسِّه، ووقف بين يدي متلفعًا بصمت ذليل لا يمتلك معه القُدرة ولا الجرأة على طلب العفو. سألته أمام الجموع المُحتشدة:

- كنتُ ترى حكمي فاسدًا، فلماذا قبلتَ الاستمرار معي؟

ازداد رأسه انحناءً على صدره ولم ينبس بحرف. عدتُ أسأله من جديد:

- رأيتني ظالمًا، فلماذا لم تحاول إثنائي عن طريق الغي الذي مشيتُ فيه؟

رفع نصف عين إلى وجهي ثم سارع بإرخاء جفونه على حدقتيه من جديد، وأيضًا لم يرد، عدتُ أوجِّه أسئلتي إليه:

- تحدثت عن التعليم الذي تم إهماله في عصري ولم آبه للنهوض به وتحديثه ورفع مستوى الطلاب، أليس كذلك؟ أريدُ جوابًا أمام هذه الجموع.

حدَّق إلى عيني دون أن يمتلك المقدرة على الردِّ، قمت واقفًا وأنا أشير بيدي إلى وجهه:

- لقد عينتُك منذ الآن وزيرًا للتعليم، ومنحتك صلاحيات العمل بما ترى للنهوض به في المدة التي ستحددها بنفسك الآن وأمام هؤلاء الخلق جميعًا، وإن لم تنفذ ما وعدتَ به خلال هذه المدة سأحاكمُك هنا أمام هؤلاء الخَلْق ذواتهم، مفهوم؟

بدا في عينيه أنه لم يعِ ما قلتُ، أو وعاه ولم يصدقه، أو ربما صدقه وأخذته الدهشة في طياتها فلم يُبدِ ردَّ فعلٍ مناسب، وظل واقفًا برهة متسع الحدقتين، مفتوح الفم، محتفظًا بشفته السفلى متدلية أعلى ذقنه كالأبله، ثم ما لبث أن أفاق لنفسه ولم يجد حرجًا في أن يتقدم نحوي مقدمًا آيات الولاء، راجيًا قبول الاعتذار وطلب السماح والعفو، وواعدًا ببذل أقصى الجهد لتنفيذ الأمر على خير وجه.

بعدها تم استدعاء ممثل الادعاء المتولي الذي فوجئتُ بانطفاء نيرانه واختفاء شروره، وتحوُّله إلى بالون قد فرغ من هوائه، فانكمش على نفسه في خزيٍ وانكسار، حدقتُ إلى عينيه، رماد الغضب تذروه رياح الانكسار.

وجهتُ حديثي للعامَّة من حوله:

- هـذا الرجـل انتقـد سياسـة الإعـلام، وقـدَّم مطالـب معينـة لتصحيح صورتها وتعديل ميلها، وأنا أوافقه على نقـده، وأُعيِّنُـه وزيـرًا للإعلام، بشرط أن يحقق ما قال في فترة زمنية يحددها كيـف يـشاء، وإلا فالعقاب الصارم سينزل به، ما رأيكم؟

تعالت الهتافات، وبدلًا من وحشية النظرات رأيتُ رياضًا وبساتين وطيورًا بيضاء تعشش في عينيه وهو يقدم آيات الشكر والعرفان.

تعجبتُ من هذه النوعية من البشر التي ما إن تملك القـرار وتـشعر بقدرتها على الفعل حتى تطيح وتبطش وتنكل كيف شاءت بالباطـل أو بالحق، ومتى ما فَقَدَتْ صولجان عظمتها انحنت وعادت تلعق الـتراب في خزي.

هؤلاء كما أراهـم الآن عبيـد الظـروف والمواقـف، قلـوبهم ممتلئـة بالحقد والحسد وينتظرون اللحظة التي يقدرون فيها ولا يعرفون العفو، وهؤلاء أفضل وضع لهم أن يكونوا تحت إمـرة مـن يقـودهم ويـسوس حركتهم ويلهب ظهورهم إن أخطؤوا وهذا مـا فكـرتُ فيـه ولـصالح البلد ليس إلا.

طلبتُ النداء على ثنـاء البنـت التـي رافقتنـي طيلـة أيـام اعتقـالي، تقدمت خجلة الخطوات حيية النظرات تتعثر في ارتباكها، منحتُها أمـام الجميع وسام الشرف، وقدَّمتُ لها الشكر على حُسن معاملتهـا، وقمـتُ

مغادرًا المكان وسط التصفيق والتهليل والدعاء بدوام حكمي الميمون ونظرتي الثاقبة وحكمتي التي تتغلب دومًا على غضبي.

وطوال طريق العودة كان الهتاف المأثور يرنُّ في أذني:

- (بالروح بالدم نفديك...إلخ)

وأنا أُحدِّق إلى الوجوه العابرة أمام عيني متسائلًا.. كيف تتغير المشاعر ما بين ليلة وضحاها؟ وهل المشاعر فعلًا تتغير، أم هو النفاق، أم انعدام الرؤية والتصفيق لمن يعتلي الكرسي أيًّا كان، والموافقة العمياء على كل ما يفعله ما دام يعتلي الكرسي، حتى لو سار بهم الى الجحيم؟ هل هؤلاء الناس يمكن الوثوق بهم والارتكان عليهم في الملمات؟ وما الذي أوصلهم لهذه الحال؟ وكيف أغيرهم ليكونوا أصحاب موقف ورؤية وهدف لا يحيدون عنه؟ أم هي طبيعة تطبعوا بها وانتهى الأمر؟

قررتُ في أول اجتماع لمجلس الحكماء أن أناقش هذا الأمر وأبحث عن الوسائل اللازمة لإعادة تشكيل وعي الناس من جديد، ليكونوا أصحاب موقف ورؤية وهدف لا يحيدون عنه مهما يكلفني هذا، حتى ولو كان ثمنه الكرسي الذي أعتليه. واستدرتُ عنهم قاصدًا الغرب حيث كانت وجهتي قبل أن تضرب العاصفة الموكب ويحدث ما حدث.

كانت أنباء ما جرى قد تداولتها كالمعتاد وكالات الأنباء والصحف، ضخَّمت ما شاءت أن تضخم، وزادت ما شاءت أن تزيد، وحلَّلت وفسَّرت واستنتجت، فقالت الصحف الحكومية: إن هناك

مؤامرة كبرى يتعرض لها الوطن في شخص الحاكم، وغمزت صحف المعارضة بكلمات بين السطور تشي بغضبة الشعب وانتظاره الحظةَ التي يتحرك فيها ليقضي على الطغيان.

وبطبيعة الحال كان كل ما ينشر هنا وهناك يأتيني مُلخَّصٌ منه، أنظر فيه سريعًا وأعطي التعليمات، موجهًا إذا احتاج الأمر للتوجيه، وقد رأيتُ هذه المرة أن يقام استقبال حافل في (مدينة النسائم) غرب البلاد ليكون ردًّا على المعارضة، وفي الوقت ذاته رسالة للعالم أن الشعب يؤيد ويبارك خطواتي المباركة ويُشيد بحكمتي في مواجهة الأزمات.

تحرك الموكب مُتجهًا إلى المدينة إذن، مع متابعة دقيقة مني مع الإدارة المختصة لكل صغيرة وكبيرة في الاحتفال، حتى إذا ظهرت مشارف المدينة رأيتُ على أبوابها ما سَرَّ قلبي وأسعدَ وجداني.

فرقة خيالة على الجانبين برايات عالية ترفرف في السماء، حاملة صوري وعلم البلاد، وفرقة شعبية تدقُّ الدفوف والطبول بأغنيات كتبت خصيصى لأجل هذه الزيارة وتمجيد مقدمي ومدح أعمالي، وكبار المدينة يقفون مصطفين بانتظار ظهوري ليقدموا آيات الإكبار والتقدير وعلى رأسهم حاكم المدينة الذي تقدم بآيات الترحاب والسرور لمقدمي الميمون، وعيناه تصرخان أنه يكذب وينافق ولا ينطق بكلمة واحدة تحمل رائحة صدق أو لمسة ود، تبسَّمتُ له واطمأننتُ على حاله الذي لا يهمني في شيء، وكذلك على أحوال المدينة ومن فيها، وتحرك الموكب إلى

الداخل حيث الشوارع تعلوها أقواس نصر بألوان بهجة وفرح مكللة هامات الطرق، وتحتها جموع غفيرة من البشر بهتافات تهزُّ قلب الكون:

(بالروح، بالدم، نفديك... إلخ)

مضينا إلى مقر المدينة الرسمي كما طلبت وبدأت المناقشات.

رغم يقيني السابق أنه لاستمرار الاستقرار من بعدي لا بد أن يكمل ولدي مهمتي فإنني بعد أن حدث ما حدث قلَّت كثيرًا حماستي لهذا الأمر.

هناك أشياء كثيرة لو فعلتها فلن يحتاج الشعب لولدي أو غيره، ولن أحتاج أنا لحماية نفسي منهم إذا تركتُ الحكم، والقانون وحده سيكون كفيلًا بمعالجة أي ميل أو جور من أي حاكم، والوقوف في وجه الظلم مهما يكن عُنفوانه، وصد أي افتراء مهما يعظم، وتلك يجب أن تكون مهمتي الأولى.. إعادة تأهيل هذا الشعب من جديد!

أما ابني وتوليه الأمر من بعدي فتلك أصبحت مسألة ثانوية رغم أنف حفصة زوجتي، وحينما ألتقي بها يمكنني مناقشتها بهدوء ودون اندفاع وإقناعها بما أراه.

كانت مدينة النسائم لأنها في الغرب بعيدة عن المدن الرئيسية وعن بؤرة اهتمامها تعاني من نقص في أشياء عدة، وذلك لضعف الميزانية المُقدَّمة لها؛ لذا كان أول قراراتي زيادة الميزانية المخصصة لها فورًا، وطلب تقريرًا أسبوعيًّا عن المشروعات والخدمات التي يجب تقديمها للناس وبلا إبطاء، وبعد ذلك وبعد أن انفرجت حِدَّة التحفظ وتعالت

الـضحكات والقفـشات الرقيقـة ألمحـتُ بـصورة عارضـة إلى ولـدي، ووعدني الرجـل خـيرًا، وأنـا أرى في عينيـه رفـضه البـات لهـذا الأمـر وتصميمه على معارضته بكل قواه. لم أبـالِ بـه، فمـصلحته تُحـتِّمُ عليـه استمرار الحكم الحالي، وهذا سيتحقق في حالة تولية مسعود، فلا خوف إذن من معارضته.

قمتُ سريعًا بزيارة بعض المصانع والشركات. كلها تعاني وتـشكو زيادة الضرائب وارتفاع أسعار المواد الخام والكهرباء والماء ومستلزمات الإنتاج وأجور العمال وعدم قُدرتهم عـلى الإنتـاج في هـذا الجـو الغـائم الشديد السواد، خاصة أن المنتجات الأجنبية المستوردة تكتسح الـسوق وبأسـعار زهيـدة، ممـا يـضرب أي فرصـة للإنتـاج، أو تـشغيل العمالـة المحلية.

سألت:

- وماذا ترون؟

قيل:

- إيقاف الاستيراد للمنتجات البديلة التي تُصنع محليًّا.

أصدرتُ قرارًا بهذا، وطلبتُ البحـث فـورًا في تـوفير المـواد الخـام وكذلك مراجعة أسعار الكهرباء والمـاء أو تقـسيط أسـعارها للنهـوض بالصناعة مـن كبوتهـا، وأكـدتُ عـلى ضرورة التـصنيع وعـدم توقـف المصانع بأي حال، وشـدَّدتُ عـلى الرجـوع إليَّ فـورًا عنـد مواجهـة أي مشكلة تعوق عودة الصناعة لسابق عهدها.

بعدها غادرتُ المدينة قاصدًا العودة إلى العاصمة وفي رأسي أشياء وأشياء، لعل أهمّها المناقشة والبحث عن الوسائل اللازمة لإعادة تأهيل الشعب كما قلت، ليعود من جديد إلى روحه القديمة وإلى قدرته على الرؤية، واتخاذ الرأي الصواب، وكذلك محاولة علاج أوجه القصور الموجودة في الخدمات.

مرض ليلى

لا أعرف لماذا كنت أخشى المجهول دومًا. أشعر أن هناك شيئًا ما ينتظرني ليقبض روحي، يمزق شراييني، أو يُفتِّت كبدي، شيئًا ما لا أدري كُنهه ولا أُميِّز سيماه أو حقيقته، أنتظره ربما خلف باب، أو داخل مركبة، أو وسط الطريق.

ونتيجة لهذا الانتظار الممض كنتُ أراني في حالة قلق داهم، أتربصُ بالنظرات وأهتمُّ باللَّفتات وتشدُّني جدًّا الإشارات والتليمحات التي ربما تحمل مدلولًا أو شفرة أو اتفاقًا على وشك التنفيذ، فتراني لحظتها أُبالِغُ في ردِّ الفعل إلى درجة الهيستريا، ولا يهدأ خاطري وتستريح نفسي إلا بعد الوصول إلى حقيقة ما جرى مهما تكن؛ لذا يقول من حولي همسًا إني أهتمُّ بتَوافِه الأمور، وأتوه في سراديب التفاهات، ولا أبالي بالردِّ، فعادة يكون الهمس أقل من أن يصل إليَّ، لكنها المخابرات سامحها الله.

هذا من الخلق حولي، أما مفاجآت القدر فتلك قصة أخرى تهزُّني هزًّا، أراني أمامها أضعف من حجر منبوذٍ مُلقًى على الطريق، أو ريشة بلهاء تتلاعب بها أيدي الهواء بلا مبالاة، وقد فوجئتُ اليوم بمرضٍ ليلى فُفجعت، بكت سعاد وملأت الوجود عويلًا، واصفرَّ وجهُ عادل وهُرعا إلى حفصة زوجتي:

- البنت تصرخ وتشكو رأسها.

استدعيتُ الطبيب فورًا، اكفهرَّ وجهه بعد الكشف وأمر بنقلها فورًا للمستشفى، دَكَّ قلبي خوفٌ داهم ورأيتُني مثل سعاد أريد أن أترك للدموع مداها وللعويل دروبه لولا الوجوه المتربصة من حولي، هرولتْ حفصة وسعاد وعادل معها وبقيتُ وحدي أتابع عملي وعقلي هناك معهم وبينهم وعيناي لا تريان إلا دموعًا وجنائز وأحزان ودنيا يملؤها السواد، وكلما أدرتُ وجهي إلى ناحية طنَّ صوت خشن في أعماقي..لو جرى لليلى شيء سأموتُ معها.

بريق الصحو

صارت فكرة البحث عن الوسائل اللازمة لإعادة تأهيل الشعب ليعود من جديد إلى روحه القديمة وإلى قدرته على الرؤية، واتخاذ الرأي الصواب مرافقًا لا يغادر مجلسه في صدري. لا أدري حتى الآن كيف احتلت رأسي. ولماذا تغيرت نظرتي إلى الناس بهذه الصورة. هل المحاكمة التي رأيتني أقِفُ فيها موقف المتهم هي السبب؟ أم إحساسي أن هذه المحاكمة لم تكن إلا بروفة لمحاكمة كبرى لن ينفعني ولن يساعدني فيها أحد، وسوف أواجه فيها الحق سبحانه، ولن أفلت من سؤاله عن كل ما فعلته ذرة ذرة؟ أم هو الإشفاق عليهم حينما رأيتُ منهم ما رأيتُ من انقيادهم الأعمى لمن يقودهم، مهما يكن هذا القائد، ومهما تكن الوجهة التي يقودهم إليها، وشعرت بمسئوليتي المباشرة عما وصلوا اليه؟ أم هو إحساسي أن تاريخ هذا البلد يحتم أن تكون غير ما

هو فيه الآن بالمرة؟ أم لأنني كبرت ولم يعد بيني وبين الموت إلا القليل، فقررتُ أن أكفّر عن سيئاتي بهذا العمل؟

ربما، آه! كم كانت فترة الاعتقال والمحاكمة رغم مرارتها رائعة، وغيَّرت تمامًا من أفكار كنت أظنُّها صائبة! لنرَ ماذا يصنع الغد.

بدء خطة التأهيل

كنتُ رغم كل شيء أفكر في أمر ولدي مسعود. أريدُ مثل غيري من الآباء أن أطمئن على مستقبله قبل أن أودع الحياة، لكنني كنت أخشى كل الخشية أن أحمله مسئولية شاقة تحتاج لجهد يفوق قدراته مرات ومرات.

قديمًا وتحت الحاح حفصة أمه كنتُ أريد أن أهبه مكانة رفيعة تليق به، وأضع بين يديه صولجانًا شامخًا وكرسيًّا عاليًا يفرض على الجميع طاعته والولاء له، لكنني اليوم وأنا أرى الموضوع من زاوية جديدة أرى مسئوليات جسام لا يجب أن يتصدى لها إلا قلب حديدي، وعزيمة لا تفتر، وعقل لا يعرف المستحيل، وهذا كله لا يملكه ولدي!

إن تغيير الناس والظروف المحيطة لا تصلح لها البيئة التي نشأ فيها، فهو بحاجة إلى الدَّعة والاسترخاء، وإصدار الأوامر، وانتفاخ

الأوداج، وتقطيب الجبهة، ونقد كل شيء، والإصغاء الجيد جدًّا لوالدته فقط، خاصة وهي تحدثه عن مكانه الجديد المُعدِّ له خلف أبيه على الكرسي العالي.

وقد كنتُ إلى ما قبل اعتقالي في مدينة العيون أرى رأيها تأثرًا بإلحاحها الرهيب و(زنّها) الذي لا يهدأ في أذنيي، طالبة تمهيد الطريق جيدًا لتولية مسعود، لأسباب عديدة كانت تعيد وتزيد فيها، وأهمها أن هذا الشعب لا يأبه إلا للأقوياء، وما دمتَ قويًّا وبيدك السلطة فلن يقترب منك لسان أو يد، لكن ويل لك وويل لأهلك وكل معارفك معك لو تنازلتَ عن هذه السلطة لغيرك، ساعتها سوف ينبشون قبرك إن متَ أو ينهشون لحمَك إن ظللتَ حيًّا!

لذا لا تجد مسئولًا سابقًا عندهم، كل مسئوليهم عرفوا هذا جيدًا، لذا لم يتركوا السلطة بمزاجهم ورغبتهم، بل بحكم الموت، أو الثورات المتتالية، لذلك - والكلام ما يزال لها - لو تنازلتَ لابنك فلن يجرؤ مخلوق على مسّك بسوء، بصفتك أبا الحاكم، ولك من الحصانة والمنعة ما يصدُّ أي هجوم أو حقد ظاهر عليك، ثم إن ابنك هذا قد ترعرع في الجاه والسلطة وإن لم يتولَّ الحكم فسوف يشقى بعدك، وليس ببعيد أن يحمّلوه أخطاءك ويحاكموه عليها، وإن لم يكن لك أخطاء اخترعوا لك أخطاءً ليحاكموه عليها، وهأنت ترى البلاد من حولنا وما تفعله بحكامها السابقين.

وقد كنت حقيقة أسمع لها وأقتنع، على أساس أن الولد يمكنه الجلوس على الكرسي ومراقبة الحكومة ومتابعة عملها وإصدار توجيهاته بخصوصها، وينتهي الأمر عند هذا، لكن الرؤية تغيرت تمامًا بعدما حدث. انكشف الأمر لعيني كما لم ينكشف من قبل، الجلوس على الكرسي العالي ورطة ما بعدها ورطة، ومسئولية من أخطر المسئوليات وأقساها، ولن ينجو منها إلا من يبذل روحه خالصة لأجلها، خاصة في ظل هذا الوضع الذي رأيته بعيني، وعاينته بنفسي، بعيدًا عن التقارير والملفات والأقوال المحفوظة بأن:

- كل شيء تمام.
- وبانتظار أوامر سيادتك.
- وحسب توجيهات الكرسي العالي.
- والرؤية الحكيمة لصاحب الكرسي.

والشجاعة والشهامة وكل الصفات المجيدة التي يلصقونها بأي جالس على الكرسي. ولولا الإحراج والإحساس بأن الأمر سيصبح مكشوفًا جدًّا لشبهوه بالأنبياء والمرسلين، وقد حدثت أشياء مثل هذه في بعض البلدان القريبة وغيرها الكثير. رغم أن إظهار الجانب الإنساني لصاحب الكرسي أولى وأعقل. إظهار نقاط ضعفه كبشر ونقاط قوته، والتركيز على قدرته على أداء واجبات وظيفته أنفع وأولى. أما إخفاء العيوب في أوج قوته وسلطانه لإظهارها بعد أفول شمسه وفضحه في

كل الأنحاء فشيء مُقزِّز لا يقبله إلا مجنون، هذا بالإضافة إلى أن فيه ضررًا بالغًا بالبلد ومصالحه، لذلك فإنني الآن أقولها جادًّا:

لقد كرهتُ الكرسي، والجلوس عليه، وتحمُّل مشاقِّه الحقيقية الصعبة، وليس مشكلاته السابقة التي كنتُ لا أعلم عنها شيئًا، ولا أمتلك القدرة على إصلاح أي منها، ربما لتكاسُلي، وربما لأن التقارير والملفات لا تذكرها، وتكتفي بنقل محبة الشعب لي رغم أن الحقيقة أنه يكرهني أشد الكُره، ووضع الأكليشيه الجاهز..(كل شيء تمام).. رغم أن كل شيء في حالة يُرثى لها، وقد كنتُ نائمًا مطمئنًّا والبلد كله يئنُّ، ولم أنتبه إلا يوم اعتُقلتُ ورأيتُ المشاعر الحقيقية تعلو الوجوه، والكلمات المكبوتة تخرج قوية هادرة، والعيون تطلق شَرَرَ كراهيتها وغضبها بلا خوف، ولأن الأمر كان أخطر من مجرد الثواب والعقاب لأنه يخصُّ شعبًا بكل طوائفه فكان لا بد لي أن أتحرك جادًّا لفعل شيء، وسأفعله لعلي بهذا أُصلِحُ أخطاء سنوات ماضية لم أفعل فيها شيئًا، اكتفيتُ فيها بإلقاء الخطب الحماسية والكلمات الرنانة التي لم تكن تعني إلا مزيدًا من الكراهية، وشعور العامة أنني أبيعهم الوهم، وأمنحهم السراب لقاء استمراري في الحكم. لكن المشكلة الآن تكمن في امرأتي حفصة وفي الولد مسعود أيضًا الذي تمكَّنت الأمنية من عقله الآن رغم إعلانه رفضه لها مرارًا، وصار يتصرف كوليِّ عهدٍ قادم لا محالة، وكذلك أمه التي لا تقبل مجرد فرض أن ابنها لا يصلح لهذا المنصب خاصة في الأيام القادمة لجسامة المسئولية التي ستُلقى عليه، وقد حاولت بعد عودتي

وفي لحظة صفاء أن أنقل اليها أفكاري هذه وأطرح عليها مشروعي الإصلاحي الذي كتبته وجهزته للعرض على كبار المسئولين في الدولة ليعرف كلٌّ منهم دوره ويتحمل مسئولياته ويبدأ التنفيذ فورًا، إلا أنها ثارت ثورة لم أرَها منذ زمان، رمتني بشَرَرِ نظراتها وجارح حروفها غير مباليةٍ بي ولا بمشاعري وكياني كوني رجلًا أو حاكمًا كبيرًا، وبدأتْ في توجيه اللوم والتأنيب إليَّ، بل رمتني بالحُمق وقلة العقل والتفكير المُعْوَج الذي سيُضيع الولد، ويضيعها، ويضيع البلد معها ، فالحلول الكثيرة التي كتبتها مجرد أحلام شيخ عجوز مُخرِّف، لم يعد يرى من وجوده إلا الموت، وما دام كذلك فليترك الحياة لأصحابها، بدلًا من ضياع الكرسي والسلطة والجاه على يديه، وربما عرَّض الجميع حتى نفسه للمحاكمة والاعتقال بتهم لا يعلمها إلا الله.

ولا أخفي سِرًّا إذا قلتُ إن كلامها قد ترك أثرًا في نفسي، وجعلني أعود مرة أخرى للتفكير، ولكن هذه المرة محاولًا التوفيق بين الصالح العام والصالح الخاص، وبمعني آخر إتمام مهمة الإصلاح، وإشراك ابني فيها منذ بدايتها ليكون شريكًا فيها، وقائمًا عليها، ومسئولًا عنها، وبذلك أستطيعُ تنفيذ ما رأيتُه ضروريًّا لهذا البلد ليعود كما كان وأكثر، وفي الوقت ذاته فتح الباب على أقصى اتساعه للولد ليكون امتدادًا لأبيه، بل يرحب به أيضًا بصفته صاحب مشروع إصلاحي سيعود على البلد كله بالخير. وهكذا قررت التنفيذ برؤيةٍ واضحة وخطة متكاملة وهدف محدد.

قمتُ بدعوة مسئولي المؤسسات المختلفة (التعليم والقضاء والإعلام و...و...إلخ) وعرضتُ عليهم الأفكار المكتوبة، وناقشتهم فيها، كلٌّ على حدة، وطلبتُ من كل منهم تطوير هذه الأفكار، ووضع خطط محددة بنقاط لها أمدٌ زمني يتم السير عليه بإشراف مسعود، وعرض الأمر على الشعب بعدها ليشاركنا المشروع النهضوي الكبير لخير البلد وأجيالها القادمة.

خطة حفصة

الشيء الذي لم أمتلك القدرة على تغييره أو إيقاف خطورته مهما أُوتَ من العقل أو القوة هو تفكير زوجتي حفصة، خاصة حينما كانت تطلب شيئًا، فإنها لحظتها كانت تتحوَّل إلى ميكروفون لا يعرف الصمت، وإلى جهاز رصد لا يعرف السكينة والهدوء، فتراها تُحصي الحركات والهمسات وربما الخواطر أيضًا، وتدور حولك وتسير خلفك وتسير أمامك ولا يمنع أبدًا أن تقفز في صدرك وتنبش في أعماق مشاعرك وتلكزك في كل جزء من جسدك تطوله يدها، افعل كذا، افعل كذا، افعل كذا، ويا ويل ويلك إن لم تفعل! (زعابيب) ورياح وبرق ورعد تملأ البيت، وتصبح الحياة لحظتها لا تُطاق.

ولأنني في بداياتي الأولى كنتُ لا أمتلكُ القدرة على طلاقها لما قد أتجشمه من صعاب خاصة مع عائلتها الغنية ذات الجاه، وما قد أراه من

بأس أنا في غنًى عنه، فقد كنتُ أتحاشى التصعيد معها، وأتركها تتكلم كما تشاء، وأفعل أنا بعيدًا عن عينيها ما أشاء بحذر شديد حتى لا تصل إليها ولو ذرة من حرف جامح من هنا أو من هناك، ثم بعدما صرتُ صاحبًا للكرسي صارت الأسباب التي أتعلَّل بها لعدم مواجهتها مختلفة كل الاختلاف عن ذي قبل، فهناك أعين راصدة لكل حركة تصدر منا، ويمكن بسهولة أن تنتشر في ربوع البلد وتسيء إليَّ أولًا، وقد تقلل من هيبتي ومن الصورة التي يجب أن تراني العيون عليها، خاصة أن مجتمعات كمجتمعاتنا يهمها جدًّا الشكل الخارجي والهيئة الظاهرة للأسرة، أما ما يجري داخل الغرف المغلقة فلا يهم في شيء إلا إذا تسربت الروائح العطنة وانتشرت وزكمت الأنوف، فلحظتها تكون الطامة الكبرى، حيث تتأجج النيران وتشتعل بلا هوادة ولا فتور أيامًا عدة، إلى أن تعود فتنطفئ مرة واحدة كأن لم يكن هناك شيء، لذلك فمن أشد الذكاء حينما يتكهرب الجو وتغشى القلوب غاشية الغضب وتملأ الآفاق حروف فضيحة ما هنا أو هناك فإن أشد الذكاء أن يلتزم صاحبها الصمت، يكتم مشاعره وآهاته وحروفه الباكية أو الغاضبة في صدره إلى أن تمرَّ الريح العاصفة، بعدها يعود إلى طبيعته وطبيعة علاقته بمن حوله، كأنما لم يحدث شيء، إلا منصب صاحب الكرسي الكبير لسبب بسيط جدًّا، ألا وهو تربُّص الجميع به، فمن العار وأنا أعي هذا جيدًا أن أترك لهؤلاء فرصة التوغُّل إلى حجرات بيتي، والإنصات إلى حروف زوجتي الصاخبة التي لا تعرف الهدوء مهما تتكبد من ألم تحملها والتعايش مع حروفها، وهذا لا يعني بحال أن كل تصرفاتها لا تُطاق،

فهي والحق يقال حينما تكون راضية النفس تملأ البيت راحة وسكينة وودًّا مقيمًا، تملأ السماحة البيضاء وجهها، وتنثر عيناها البسمات، وتتطاير حولها الحروف بأجنحة الرضاء والسرور.

المشكلة كلها تقع حينما تمسك عليك خطأ ما، فهنا لن تتركك دون تأنيب ولوم وعتاب وتوبيخ وما إلى هذا من مسميات، وآخر مرة تم معي هذا بعدما عدتُ من مدينة العيون ونجوت من الاعتقال، بعدها ظلَّت أيامًا تهاجمني لعفوي عن السيد سليمان والمتولي، وتكرر أنه كان يجب معاقبتهما بالإعدام فورًا، قائلة إنه ما دامت نيتهما كانت إعدامك فكان يجب عليك الرد بمثل ما فكَّرا فيه، أما هذا التراخي فلن تجني منه إلا الندم والحسرة!

وأيضًا حينما تريد شيئًا فأمامي أمران: أما إن أُلبِّي طلبها فورًا أو تصبح الحياة جحيمًا، وهي للحقيقة أيضًا لا تعرف حدًّا للغضب، ولا تقف عند لحظة للتراجع أو الاستسلام وقانونها الأزلي..أما إن أنفذ ما تريد أو الجحيم!

وقد كان كل هذا مقبولًا إلى أن أوحت إليَّ بتوريث مسعود بعدي كوني صاحبًا للكرسي العالي حتى لا يخرج الأمر عن عائلتنا بحال، ولأسباب كثيرة أظنُّ أنني ذكرتها قبلًا وللحقيقة أيضًا ولأنني رأيتُ أسبابها منطقية فقد بدأت في الإعداد لهذا الأمر، إلى أن حدث ما حدث في مدينة العيون، هناك تغيرت أفكاري ورؤاي بصورة كبيرة، رأيتُ حقيقة أخرى غير التي كنتُ أظنُّني أعرفها، حقيقة أخرى واضحة وضوح الشمس تقول لي: انظر وتدبَّر إذا كنتَ تُريد النجاة.

رأيتُني أحمل مسئولية أمام نفسي أولًا، وثانيًا أمام أجيال كثيرة قادمة، فقد انتبهتُ لسلوكيات غريبة عن عرف الشعب وتاريخه وحياته طوال سنوات عمر البلد، سلوكيات اكتسبها من أطراف شتى وبرع فيها، هذه السلوكيات الشائنة هي الشيء الوحيد الذي برع فيه طوال سنواته الأخيرة وتفوق فيه بلا حدود.

وانتبهتُ إلى أنه لو ترك هكذا سينحدر أكثر إلى درك لا يعلم إلَّا الله مداه، العدوانية صارت سمة رئيسية من سماته، واللامبالاة، وغياب الضمير وسيطرة النفاق و..ماذا أقول أكثر؟ لذلك كانت مهمتي التي نذرت روحي لها هي البدء في تغيير كثير من هذه السلوكيات، وإعادة الضبط والربط ليعود الشعب كما كان منذ قديم، شعبًا له موقفه وآراؤه وتفكيره الذي يتسم بالعقل والحكمة والإباء والشرف والكرامة.

وضعتُ خطتي على أساس هذا، وجعلت من مسعود مشرفًا على التنفيذ حتى يكون مؤهلًا للتحكم في زمام الأمور من بعدي، إلا أنها- حفصة زوجتي - قد فاجأتني بقرار جديد لم يخطر لي على بال من قبل، فقد كنا في لحظة صفاء نطلُّ من شرفة القصر على التقاء نور البدر مع السكينة المترامية في براح الخضرة، وألَقُ الصفاء يضمُّنا وخرير ماء يتدفق حانيًا من نافورة في مكان ما بقربنا حينما شقَّ صوتُها كل سكون الكون هاتفًا:

- أتعرف أنني لم أعد أتحمس لمسعود؟

كنا قد انتهينا منذ لحظات من لقائنا الزوجي، ورمتني كعادتها بكلمات غامزة لامزة حول قدرتي التي لم تعد كما كانت رغم الأدوية التي أتناولها سِرًّا من ورائها، شعرتُ بقلقٍ خفي تجاوزته فورًا قائلًا:

- كيف؟

- الولد يلهو ويلعب، ولا يضع الأمور في نِصابها.

- ما زلتُ لا أفهم.

- الولد هكذا لو تسلَّم الكرسي غدًا سيخلعونه بعد غدٍ.

- المهمة التي كلَّفته بها ستمنحه الفرصة للنضوج وتحمُّل المسئولية.

- منذ كلَّفته بها لم يفعل شيئًا.

- سوف أزجره وأطلب منه تقريرًا عمَّا يتم أولًا بأول.

- لديَّ فكرة أفضل حتى لا تغرق السفينة بكامل ركابها.

- وما هي؟

- زوج ابنتنا عادل إنسان عاقل ورزين ويتحمل المسئولية، وفوق هذا فهو أصيل لن ينقلب علينا أبدًا، ثم إنه ليس من عائلتنا وهذه ميزة، حتى لا يقال إنك قد أورثتَ ولدك الكرسي رغمًا عن أنف الناس.

- وولدك؟

- ولدي سيكون نائبًا له، ومتى نضج واستحق أن يوكل إليه الأمر تنازل له عنه.

- هكذا، بكل بساطة؟

- هناك عقد سيُكتب وشروط ستُوضع.

- أي شروط؟

- أن يحافظ على العائلة، ولا يسمح بالمساس بها من قريب أو بعيد، ويُؤمِّن أموالها ومستقبلها وأفرادها.

- وإذا كتب العقود ووافق على الشروط وحينما اعتلى الكرسي ضرب بكل هذا عرض الحائط، فماذا ستفعلين؟

- عادل؟! مستحيل.

- كيف؟

- أنا أعرفه جيدًا، سِرْ ورائي ولن تندم.

- في الخطأ؟

- تذكر أنك سرتَ ورائي كثيرًا ولم تعرف الندم قط.

تذكرتُ لا أعرف لماذا - جلدها الذي جفَّ ماءه وراحت نضارته وسألت نفسي: لماذا سار عقلها عكسه فهي كلما كبرت ازداد عقلها توهجًا ونضارة؟

وحدقت إلى الليل المتسارع الخُطى على كلأ الأرض، وهيكله المتسيد الأرجاء بظلمة روحه وعنفوان سواده، ورأيتُني أسيرُ مبتعدًا

عنها، شاعرًا أن الإفلات من براثن حروفها الآن أولى من مواجهة أنا في غنًى عنها خاصة الآن.

لكنها لم تستلم للهزيمة كما لم تعرف التسليم في حوارٍ يخصُّنا قط، لحقت بي إلى الفراش جاثمة عليه بكل ثقلها، ولأنه محدود ولا يمنح فرصة للإفلات فقد ألقت بلسانها داخل أذني واثقة بتمكنها منها لتكمل الحديث، تشرح الفائدة المرجوة والآمال المعقودة والمستوى الذي لا يليق بحال أن تتنازل عنه مهما تكن الأسباب، لم أستطع التحمل أكثر من هذا، رفعت عيني إلى وجهها المحشو لحافته بالفكرة السوداء صارخًا:

-أرجوكِ، كفى.

قالت بهدوء متنمر:

- ستفكر في الموضوع؟

قلتُ:

- مؤكَّد سأفعلُ.

واستدرتُ عنها، لم تبالِ بي.

أدارت ظهرها هامسةً بارتياح:

- تُصبح على خير.

بداية النهاية

أن تتزوج امرأة فهذا خير، هذا فقط إذا كنتَ روتينيًّا تعيش عبدًا لعاداتك ورغباتك، ولا يمكنك مقاومة إحساسك أنك رجل، واقتناعك أن الرجل يحتاج طول الوقت لأنثى مهما تكن عيوبها، ومهما يكن ما ستجرُّه عليك علاقتك الحميمية بها من قلق ومشكلات كنتَ في غنى عنها وأنت فراشة خفيفة الجناحين، تطلق غناءها الرشيق وهي تدور من زهرة إلى أخرى، متنسمة عبير الحرية، وروعة التنقل، وبهاء اختيار القُرب والبُعد حسبما تشاء، أما إذا وقعتَ بين براثن زهرة من هؤلاء فأول ما تفعله تخلع قناع الرِّقة، وترمي حروف الكلمات الناعمة، وتظهر حقيقتها جلية واضحة لا لبس فيها ولا خفاء، وتنشب أظفارها في عنقك وتقتلع جناحيك اقتلاعًا لتضمن عجزك التام عن الطيران إلى زهرة أخرى، أو إذا فكرتَ في الطيران فتضمن أن ليس لديك ما يغري الأخرى - أي أخرى - بالاستيلاء عليك، وتلك هي المشكلة الأزلية

مشكلة الاستيلاء والتمكُّن بين الرجل والمرأة منذ بدء الخليقة، الرجل يريد أن يحتفظ مدى الدهر بجناحيه ويتمنى لو استنشق عبير الزهور متنقلًا من زهرة لأخرى في راحة وانسجام، والمرأة لا تقبل شريكًا في رجلها، فما إن تطأ قدماه عتبة حجرة النوم راغبًا حتى تبدأ هي التفكير متحفزة في كيفية الاستيلاء عليه ورفع رايتها عالية خفاقة على رأسه.

ورغم وعى الرجال أو معظمهم بهذا فإنهم في الغالب ونتيجة لظروف عديدة منها الاقتصادية كالحاجة والعوز، ومنها اجتماعية ككثرة العيال، وفي هذا هناك أمثال عديدة تقال، منها:

- يغلبك بالمال، اغلبيه بالعيال.

وعادة حينما تتحكم المرأة في الرجل تتحكم لأسباب عديدة تتفنن في اختراعها، منها ضعف شخصيته أمامها لفقره أو ربما سذاجته أو حبه لها، وربما لحاجته إلى جسدها وتمنعها عليه إلا وفق شروطها، ورغم كل هذه المشكلات يظل الزواج قائمًا، ويزداد المتزوجون في العدد، وتبقى حرية الرجل رهن مشاعره وقدرته على التحكم في رغباته، ورفضه بيع حريته مهما يكن الثمن، ومهما تكن المغريات، وهي عادة رغباته الفطرية واحتياجه لجسد المرأة وأحضانها. ولا أكذب إذا قلتُ إنني أعي منذ قديم هذا تمامًا ورغم هذا وقعتُ ولم أستطع القيام أو حتى التمرد على سيطرتها وقوة نفوذها في البيت.

ليس لقوة شخصيتها وضعفي. وليس لتمنُّعها عليَّ في الفراش. وليس لقوة وجاه أهلها أو..أو..ولكن للسانها! نعم، فلسانها قد

استطاع وحده إخضاعي وإجباري على الصمت أمامها. ليس لقدرتها على الإقناع، وليس لبلاغتها في الحديث. ولكن لقدرتها الفائقة على الكلام بقوة ودون انقطاع ساعات طويلة، وبلا وهن أو خوار، فهي متى أرادت شيئًا وبدأت الكلام واستولت على أذني وصبَّت فيها حروفها فلن تنطفئ نارُها إلا وأنا أصرخ فيها:

- كفى، اصمتي.

فترميني بسواد حدقيتها متسائلة:

- وتفعل ما أريد؟

أقول مُنهيًا الحوار لأسكتها بأي شكل وبأي لون:

– لم أعد أتحمَّل المزيد من حروفك الطفيلية المتسلقة التي تنسل كالدود إلى رأسي لتحرق تلافيفها.

وطبعا لا تأبه لكلماتي في تلك الحالة، بل تعاود السؤال:

- ستفعل؟
- سأفعل، اصمتي.

فتعطيني ظهرها في هدوء، ويهدأ الضجيج تاركًا فراغًا كالصفير في أذني لا ينتهي إلا بعد حين، ونتيجة لإدراكي التام لطبيعة العلاقة بيننا فقد توقفت طويلًا أمام اقتراحها بتبديل الأدوار بين مسعود وعادل زوج سعاد، ورغم تخوفي وحذري من عادل فإني لم أستطع إغفال رأيها، ليس لوجاهته ولكن حذرًا من وقوعي تحت طائلة لسانها، لذا أمرتُ

بانعقاد اللجنة الخاصة بالمتابعة والتي أمرتُ بتشكيلها لمناقشة المقترحات وتنفيذها التي تقدمت بها إلى الحكومة طالبًا سرعة السير في تنفيذها فورًا، ووضعتُ أسماء أعضائها، وعلى رأسهم بطبيعة الحال مسعود مشرفًا ومسئولًا عن التنفيذ، ونظرًا لتغيُّر موقفي من رئاسته لهذه اللجنة فقد أمرتُ بانعقادها وأنا أحاول قبل هذا الانعقاد أن أجد منفذًا أنفذ منه للهرب من تولية عادل هذه للحكم، وما سوف تجرُّه عليَّ من ويلات، فأنا أدرك جيدًا أنني متى سلَّمتُه الكرسي فسوف أكون أول من ينقلب عليه ويهاجمه بشراسة ويطلق ذئابه للنهش فيه بلا رحمة، لكنني في ذات الوقت لا أمتلك المقدرة على الأقل حاليًا للمغامرة بدفع مسعود لواجهة الصورة وهو راغب عنها وغير مستعدٍّ لتحمُّل تبعاتها، وفي ذات الوقت أتقي شَرَّ لسان حفصة، وما سوف يفعله لتعكير حياتي إلى أن أذعن لطلبها، لذا طلبتُ انعقاد اللجنة وتفكيري لا يتوقف كيف أخرج من هذه المعضلة.

جاءتني كالمعتاد تقارير المخابرات عن الحالة الأمنية ونبض الشارع والأفكار المتداولة بين الناس وأقوال الصحف ووكالات الأنباء وما إليها، وهي عادة ما تكون صادقة ودقيقة تبعًا للجهة التي تُقدِّمها.

في استرخاء وبنظرات شاردة مددتُ يدي لألقي عليها نظرة كالعادة كي أحيلها إلى اللجنة المنوط بها الاطلاع عليها وتوجيه مؤسسات الدولة على ضوء ما فيها، لكنني بمجرد إلقاء نظرة أولى على الكلمات رأيتُني اعتدل وأمعن النظر في التقرير متابعًا في جدٍّ ما هناك:

أولًا: الحالة الأمنية:

الأمن بشكل عام هادئ ومستقر، توجد احتجاجات قليلة غير مؤثرة هنا وهناك، مع وجود مناقشات ومعارك جدلية كبيرة بخصوص الإصلاحات المزمع تنفيذها في مجال التعليم. الرأي السائد بين الناس أن هدف السلطات هو الربح بمزيد من الرسوم بحجة التطوير وقطع عيش مدرسي الدروس الخصوصية تمهيدًا لاستيلاء الدولة على الأرباح بدلًا منهم، أي إن الصراع بين حيتان تريد التهام الخيرات بعيدًا عن الشعب ومصالحه.

ثانيًا: بالنسبة للإعلام:

يُقال إن الهدف هو توجيهها لصالح الحاكم الذي يعتلي الكرسي فقط، وصالح فكرة التوريث التي يمهد لها بتكليف ابنه بمهام كبيرة فوق طاقته وقدراته، من أجل دفعه لاعتلاء الكرسي بعد أبيه.

أخذتُ أُكمل القراءة، وكلما توغلتُ في غابة السطور أشعر باختناق يملك صدري ويضغط روحي وأنا أرى كل ما فكرتُ فيه يراه الناس على عكس أفكاري تمامًا، بل وضدها على طول الخط، طبعًا إذا نحينا فكرة التوريث جانبًا، المشكلة لم تعد تداول أفكار بين الناس، ولا هو جدل مباح ومعارك فكرية لها نتاج، ونخرج منها بمحصلة وبرنامج عمل، لكنها صارت عدم ثقة ونظرة شكٍّ كبرى في كل ما أقول وأفعل، وبطبيعة الحال إذا دخل الشَّكُّ من الشباك خرج الأمن والسلام من الباب!

عدتُ للسطور الأخيرة في التقرير:

- توجد حالات اعتصام في الميدان الكبير، عددها صغير لا يتعدى أصابع اليد الواحدة، وهم يرفعون شعارات منها: كفى، لا للتوريث.

بكل ما أمتلكُ من حنقٍ وضيقٍ من هذا الغباء الشعبي المستحكم أمسكتُ القلم مؤشرًا بجوار العبارة الأخيرة الخاصة بالمعتصمين وكتبت: (حمقى!)، وأمرتُ بمحاصرتهم والقبض عليهم، ثم التحقيق معهم بتهمة الشغب والتسبُّب في اضطراب الأمن العام.

تأجج النيران

هل أُقسِمُ على نقاء ما أضمرتُ لهؤلاء الناس؟ وما جدوى القسم الآن؟ الطريق إلى جهنم كما يقولون يبدأ بالنيات الحسنة، ثم إن الفكرة عنك - وهذا هو الأساس - تسبق كل ما تقدمه وكل ما تفكر في تقديمه، ما داموا ينظرون إليك على أنك شيطان مريد فمهما تقل لن تمتلك المقدرة على تغيير فكرتهم، وكل فعل تقوم به سيتم تفسيره على أساس الفكرة المسبقة عنك، هذا ما أدركتُه الآن، والآن فقط وأنا أجلس متفرغًا لاسترجاع الأحداث وترتيبها وبحث أسبابها ونتائجها، وسألت نفسي مرارًا وتكرارًا:

- هل ما حدث كان سببه تقصيرًا من الأجهزة المعنية، أم إرادة عليا لا تمتلك معها الإرادة البشرية إلا التسليم؟

أرى الآن وأثق أنه لم يكن هناك تقصير، ولم تكن الظروف المحيطة تشي بشيء غير متوقع، خاصة أن الأجهزة الأمنية كانت تسيطر على

الموقف تمامًا، وتتابع ما يدور في الخفاء هنا وهناك بقصد الإثارة والفوضى وضرب النظام، وكنتُ أرى من خلال التقارير والملفات والمتابعة الشخصية أيضًا أن الأمر لن يخرج عن مظاهرات يومية، يمكن تجاوزها بإعطاء منحة للشعب، أو شغله بأمر من الأمور التي تُجيد الجهات المختصة افتعالها وتشغل بها الرأي العام شهورًا وليس أيامًا، لكنني فوجئتُ – حقيقة – أن الأحداث تسارعت بشكل غير مسبوق بعد هذا اللقاء الذي تحدثت عنه منذ قليل، فبعد ساعات قليلة وأنا أجلس في استراحة خاصة بعيدًا عن ضوضاء الحكم وإزعاج المسئوليات وربكة التقارير والملفات منغمسًا في لحظات ترفٍّ تُنشِّطُ القلب وتبعثُ في الروح نسائم الشباب وأريج السرور مع لوليتا جديدة بعيدًا عن حفصة ولسانها جاءنى مَن هَمَسَ في أذني أن هناك تجمعات جديدة في الميدان الكبير، لكنها هذه المرة تطالب بإطلاق صراح المعتقلين، وأن هذه المظاهرات يقودها تلك المجموعة التي التقيتُ بها في القصر، وتحدثتُ إليها واحتفلتُ بقدرتي على إقناعها بوجهة نظري، ووعدهم إياي بالوقوف إلى جواري في تحقيق الأهداف التي أحاول تحقيقها.

أنشب الغضب أنيابه في صدري، أمرتُ فورًا بتوجه القوات إليهم، وإجلائهم عن الميدان بالقوة لو لَزِمَ الأمرُ، وتركت الاستراحة متجهًا إلى مقر القيادة لمتابعة الأمر، كان قائد القوات الرماح بجواري يُهوِّن من الأمر قائلًا:

- الموضوع أقل من أن يشغل بالك، فهؤلاء مجموعة مغيبة استغلها الموتورون لتحقيق أغراضهم، وهذا الشعب من نوعية خاصة يسهل قيادها والتحكم في حركتها كما تعرف، ولكنهم سرعان ما يفيقون ويعودون لرُشدهم، ولا خوف منهم بالمرة.

وضحك وهو يكمل:

- جندي واحد يا فندم يمكنه السيطرة على الميدان وإخلائه، بل القبض على العشرات، ولن يستطيع أيٌّ منهم أن يفكر في مقاومة أو حتى هرب خشية العقاب.

حدَّقتُ إلى عينيه السوداوين وهو يتكلم، فيهما رغم خشونة العسكرية التي يحاول التحلي بها نوع من الطيبة يشدُّك إليه، سيماه تفيض بنقاء قلب وصفاء روح، عكس المطلوب في الجندي بصفة عامة، وفي القائد بصفة خاصة. راودتني للتوِّ فكرة رأيتُ أنها يمكن أن تتحقق ببعض الإعداد الجيد والترتيب الصحيح، لكنني أرجأتها لحين الانتهاء من هذه المشاغبات التي يقوم بها هؤلاء الشباب.

عدتُ إلى الشاشة المُجهَّزة لهذا الغرض في غرفة القيادة لمراقبة الوضع في الميدان، حدَّقت لحظةً محاولًا استيعاب الأمر وارتعدت، اتسعت عيناي لدهشة عارمة اكتست روحي وأنا أرى الميدان يضجُّ بالآلاف وهم يهتفون ضد الحكومة مطالبين بالإفراج الفوري عن المعتقلين الأبرياء الذين تم تلفيق التهم لهم، ومحاسبة كل مَن تسبَّب في سجنهم بلا ذنب جنوه.

عدتُ حاملًا علامات الدهشة جليَّةً على وجهي إلى الرماح قائد القوات بجواري متسائلًا:

- كيف تجمَّعت كل هذه الأعداد؟ ومتى قاموا بكتابة هذه اللافتات، وأعدّوا هذه الهتافات؟ ومن الذي يقودهم بالضبط؟

كان الرجل ثابت الجنان، ينظر هادئ العينين كأنما ليست هناك مشكلة بالمرة تملأ روحي قلقًا، تحرك من مكانه ليقف في مواجهتي:

- أرى أن نحتوي الموقف فورًا.

- كيف؟

- الإفراج أولًا عن المعتقلين.

- تقصد الأولاد العملاء؟

- على أن يكونوا تحت أعيننا.

- ثم؟

- تُسارع بإلقاء خطاب للتهدئة حتى لا تنضم إليهم أعدادٌ أخرى يصعب التعامل معها، أما بخصوص هؤلاء المتظاهرين فسوف أكلف مَن يتوجَّه إليهم، يندس بينهم يعرف توجهاتهم، ومن يقودهم، وفي الوقت ذاته سأضرب حصارًا على الميدان حتى أتمكَّن من السيطرة على الموقف معلنًا أن من يريد الانصراف لا غبار عليه، وأمنع في الوقت ذاته انضمام أعداد أخرى إليهم.

قلتُ بآلية:

- موافق.

وتركتُه إلى حيث أمرت بإعداد خطاب فورًا لإلقائه عليهم، وعدتُ إلى البيت لتغيير ملابسي، قابلتني حفصة بوجهٍ مُرتعدٍ ونظراتٍ زائغة ولسانٍ لا يعرف الصمت:

- أرأيتَ حجم المؤامرة؟

- دعيني الآن؟

- ما بك، هل أنت نائم أم مُغيَّب أم لا ترى؟

- سنتصرف معهم، لا قلق هناك.

- بل منتهى القلق، هي مجموعة حاقدة استطاعت التأثير في السُّذج والأغبياء وقادتهم إلى الميدان لإحداث فوضى عارمة، يريدون إزاحتك من مكانك، إياك والإذعان لمطالبهم، هؤلاء لا يصلح معهم إلا الكرباج.

تركتُها إلى حجرتي لارتداء الملابس الرسمية استعدادًا للوقوف أمام الكاميرات لإلقاء الخطاب، جاء المساعدون ومعهم الديباجة المطلوبة لعرضها عليَّ وأخذ رأيي، مدَّت يدها وأخذتها منهم وجلست تقرؤها، هبَّت كالريح قادمة نحوي:

- هل جُننتَ لتتنازل بهذه الطريقة؟

- كيف؟

-انظرْ وتأمَّلْ.

ورفعتُ الورقة وقرأتُ منها:

- إنني هنا لأخدمَكم وأكون رهْنَ إشارتكم، ولن أفعل إلا ما يكون في صالحكم.

ثم رفعتْ رأسها إليَّ صارخة:

- هل الإذعان صار عادة فيك؟ أين العزيمة التي كانت تُميِّز صوتك، والدهاء الذي كان يتأجَّج في عينيك؟

مددتُ يدي واختطفتُ الخطاب من يدها مهرولًا إلى الباب، هاربًا من بقايا كلمات مؤكد تريد إفراغها فوق رأسي كعادتها، سألت وأنا في الطريق عن آخر مستجدات الموقف، وطلبتُ فورًا تقريرًا بمطالب المتظاهرين وأهدافهم.

قيل:

- الأعداد تزداد رغم الاحتياطات والإجراءات المُتَّخذة، والقوات تتحاشى الاحتكاك بهم حتى لا تحدث أشياء نحن في غنًى عنها.

انتقلتُ إلى القاعة الرئيسية استعدادًا لإلقاء البيان، حاولتُ جاهدًا التحكم في نبرات صوتي وتعبيرات ملامحي حتى لا يبدو الغضب المُتأجِّج في وجداني للأعين الراصدة، هو حقيقة لم يكن خوفًا بالمرة،

فالخوف أمر لا أحسن التعامل معه ولا أستسيغ الحديث عنه، وأدرك جيدًا أن السيطرة على النفس كلما تأزمت الأمور أسهل وسيلة للنجاح، وأقرب طريق للوصول إليه، أُضيئت الأنوار وركَّزت الكاميرات فوهاتها على وجهي، وخيَّم الصمت على المكان، وأنا أعرف وأثق أن الجميع ينتظر كلماتي تلك، وما سوف أقوله فيها، توجَّهتُ بعيني إلى الأمام في هدوء واثق قائلًا:

- من أجل الحفظ على كل فرد فيكم نبذل الجهد، ولا نبخل بالدماء، حقوقكم علينا محفوظة، وأمانة العهد مصونة، ولا يمكن أن نُفرِّط فيها أبدًا ومهما تكن الأسباب، وبخصوص مطالبكم فقد تم تنفيذها فورًا لاقتناعنا أنكم مصدر السُّلطات وبيدكم الأمر والنهي.

وأخذتُ أُعدِّدُ الإنجازات التي تمَّت، والجهد المبذول فيها، والمشروعات التي نعمل على تنفيذها، وأخيرًا ختمتُ بياني بآية من الكتاب المقدس حرصت أن تكون مناسبة للموقف، واستدرت إلى القاعة باحثًا عن رجال الأمن والمخابرات لسرعة إرسال تقارير بردود الأفعال في قلب الميدان.

في طريقي للمتابعة من الشاشة العملاقة في قاعة المتابعة المركزية فكرتُ أن أُحوِّل ملامحي لصورة أخرى وأتَّجه إلى الطريق لاستكشاف الأمر بنفسي، إلا أني خشيتُ التعرُّض لموقف قد يؤذيني، خاصة في حالة الفوضى المتفشية في البلاد الآن.

عدتُ إلى البيت لمراجعة بعض الأوراق الخاصة التي أحتفظُ بها في خزينتي الخاصة، بعدها أعود لغرفة المتابعة من جديد، قابلتني زوجتي حاملة أطنانًا من العبوس فوق سواد ملامحها.

- ما هذا الذي فعلتَه؟

أشحتُ بيدي دون أن أبالي بالرد متجهًا إلى غرفتي، هرولتْ خلفي صارخة:

- ألا تسمعني؟
- لا أريدُ الردَّ الآن، ولن أردَّ.
- ستُدمِّرُ كل شيء.
- لا أريدُك هنا، اخرجي فورًا واتركيني وحدي.

زفرتْ أطنانًا من الهواء الفاسد عكرت به جو الغرفة، وألقت بكلمات لها رائحة عطنة، وغادرت المكان إلى حيث ابتلعتها الظلمة، دثرت عيني بأستار جفوني، وغصت لقمة رأسي في وديان فكر عميق فيما يجري، وكيف يجري، ومن خلفه، والمستفيد منه، وهدفه.

المؤكد أن الناس عندنا لديها ما يتعبها ويثير حنقها، ولكنها عادة تتكلم وتشكو وتتذمر وينتهي الأمر عند هذا، أما أن تقاوم وتعتصم وتتحدى وتنذر وتطالب بأمور جماعية محددة، منذرة إن لم تنفذ مطالبها بالتصعيد، فهذا ما ليس من شيمهم أبدًا. هم ينظرون إلى الحاكم في كل

أحواله بعين الإكبار، ولا يتورعون عن الانحناء أمامه والإذعان له مهما يكن ومهما تكن تصرفاته، ربما هاجموه في غرفهم المغلقة، أو وصفوه بصفات قبيحة وسباب جارح على المقاهي وفي الحوانيت في لحظات ضيق يفرجون فيها عن أنفسهم أمام الغير ويستريحون بعدها لظهورهم بمظاهر الجرأة والتحدي، وبعدها ينتهي الأمر عند هذا الحد، أما أن يقفوا هكذا وتتجمع وفودهم وتتحد كلمتهم وتتحدد مطالبهم فهذا تخطيط خارجي، ومؤامرة واردة، وتخطيط له أهدافه التي لا بد أن أجهضها وأعمل للحيلولة دون تحقيقها، مؤكد هؤلاء الأولاد الذين تدربوا على إحداث الفوضى، وإفشاء التذمر، والتأثير في الجموع من خلال تذكيرهم بمشكلاتهم اليومية المعتادة هم السبب، فمنذ دهور ومشكلة الغلاء لا تنتهي، وكذلك الحديث عن الفساد وانتشار الرشوة والمحسوبية وما إلى هذا من أشياء يشكوها الجميع، ويقف الأمر عند حَدِّ الشكوى لا يزيد، أما الآن فالصوت يعلو، والمثالب تتضخم، والجموع تتكلم، وكلها مطالبة بالتغيير.

المشكلة أن هؤلاء البسطاء، السذج، الطيبين، أو قُل عليهم ما شئتَ إذا توحدوا وضمُّوا أيديهم إلى بعضها البعض صاروا قوة لا يقف أمامها شيء.

هذه الجموع حين تتوحَّد تصبح عملاقًا كلمته تزلزل أعتى القوى، وتدكُّ أعتى الحصون، ولا يمتلك كائن من كان إلا الإذعان لها، وواضح ممن جمعهم ويثير فيهم الحمية للمواجهة أنه يدرك هذا،

ويضغط بهم على النظام لإسقاطه والاستيلاء على الحكم، المشكلة أنني حتى الآن لا أدري هل هم هؤلاء الأولاد العملاء، أم مجموعة أخرى لم تعلن عن نفسها بعد هي التي تقود هذا التذمر الآن؟

قمت متجها إلى الهاتف، نقلت أفكاري لقائد القوات الرماح:

- هؤلاء الأولاد يمتلكون القدرة على إحداث الفوضى كما ظهر جليًّا، ما خطتهم التالية؟

- التفاوض واستخدام المظاهرات الضخمة كأوراق ضغط، وبعدها محاولة إسقاط النظام ككل، وهذا لا يقوم به إلا تنظيم قائم يمتلك كوادر على غاية من الدراية والتدريب الكافي.

- تقصد أن هناك تنظيمًا خلف ما يجري؟

- هذا مؤكَّد.

تركته للحديث إلى قائد الحرس حمدان، ذات الحوار تقريبًا مع تسمية عدة تنظيمات متطرفة وطرق تعاملها وكيفية مجابهتها والتغلب عليها، بعدها انتقلت لمحادثة قائد المخابرات البرعي وجاءت كلماته عبر الهاتف تؤكد صدق توقعي:

- (جماعة التطهير) تحتلُّ الميدان، تنتشر في كل الأنحاء وتثير الجماهير مصعدة من شدة المواجهة، وتطالب هذه المرة بإقالة الحكومة، ومحاكمة أعضائها!

المجزرة وتوابعها

استدعيتُ لجنة مواجهة الطوارئ لبحث الأمر. كانت الصورة حية أمامي، لا تغيب طوال بقائي في غرفة المتابعة الرئيسية. تنقل الأحداث جلية، ناطقة بكل ما يمكن حدوثه في الميدان أولًا بأول. كنتُ أرى وجوهًا هازلة، وألفاظًا ساخرة، وأغنيات وأناشيد ورقصًا جماعيًّا تُشارك فيه الفتيات والنسوة في منظر لم أرَه من قبل طوال فترة حُكمي التي امتدت أمدًا بعيدًا، أحدهم يتصدَّر الشاشة رافعًا لافتة من الورق المُقوَّى مكتوبًا عليها:

- حكومة فاسدة.

آخر يسير بلافتة علَّقها على صدره وبها:

- أنا حاكم نفسي.

وثالث تجرأ وكتب على لافتة كبيرة:

- الفاسد يأتي بالفاسدين.

ورابع:

- اقطعوا رأس الأفعى.

وغيرها كثير.

لم تكن قبضتي حديدية إلى الدرجة التي أُثير فيها الحنق وأكبت المشاعر كي تتفجر الآن بهذه الصورة قط، لم أكن سيئًا إلى الدرجة التي تصبح فيها سيرتي واسمي وفترة حكمي كابوسًا يريدون التخلُّص منه بهذه الصورة، حكم البلاد يحتاج مع العدل إلى القوة، ويحتاج مع القوة إلى البطش، ويحتاج مع البطش إلى شيوع الخوف من العقاب الصارم لتستقيم الأمور وتسير الحياة كما يراد لها من الأمن والسلام بين الجميع، أما الاسترخاء فلا يُولِّد إلا خوارًا وضعفًا، ويطمع فينا الدول المعادية، وأعداء هذه الأيام من الكثرة بحيث عليك أن تتيقظ لهم، وتريهم في كل لحظة أنك ممسك بزمام الأمور، وأن حدودك جحيم لمن يفكر بالاقتراب منه، وأظنُّ أنني قد استطعتُ أن أفعل هذا، وكذلك استطعتُ أن أوفر للجميع حياة يجد فيها الكساء والملبس والمسكن في كل حين، المشكلة الوحيدة التي أعترف بها ولا أنكر تمسُّكي بها هي يد الدولة الباطشة وذلك للأسباب التي ذكرتها، فلماذا هذه الكراهية المتأججة في العيون، والمنطوقة على كل الألسنة، كأنني لم أكن واحدًا منهم، خرج من حارة من حواري قرية في أعمق أعماق الفلاحين هناك، حيث القلوب البكر التي غذَّتها الأرض بنقائها، وروتها الخُضرة بصفائها، ورأى وعرف معنى الأهل والأصدقاء والجيران، والروابط

التي تربط الجميع برباط ودٍّ مقيم لا ينفصم مهما تكن الأسباب؟ أنا الذي وقفتُ يومًا حاملًا رأسي بين يدي راضيًا أن أقدمها فداء للبلد ولأهلها، ثم إنهم حينما اختاروني لم يكن اختيارًا عشوائيًّا ولا هو اختيارًا غبيًّا، ولكنه اختيار قائم على أسس وأسباب قوية وثقة مؤكدة بشخصي، صحيح أنني في فترة مضت قد شردت قليلًا عن ميثاق الشرف الذي قطعته على نفسي يوم تقلدت مقاليد الحكم، لكنني عدتُ ثانية أقوى من ذي قبل، مُقبِلًا على كل فرد فيها بملء القلب حبًّا وسلامًا، عازمًا على إعادة الحياة في هذا البلد الذي أحبه وما زلتُ مستعدًّا لأفديه بروحي على إعادة الوجه الحقيقي له، ومحو كل ما يمكن أن يسيء إليه، وتغيير تقاليد فاسدة ترسخت في تصرفات أفراده، وبناء كل ركن فيه من جديد كما ينبغي لبلد عظيم مثله، فلماذا يجيئون الآن لإفساد كل شيء؟

هؤلاء الأولاد العملاء لا بد من محاكمتهم محاكمة شعبية ليرى الجميع ويعرفون حجم المؤامرة التي تعرضوا لها، وهذا التنظيم المُخرِّب سوف أجابِهُه بكل القوة لأجهض تخطيطه الشيطاني.

اجتمعت اللجنة على عجلٍ حول المائدة الرئيسية لمناقشة الوضع العام، كانت الأعداد كما يبدو على الشاشة تتزايد ناشرة في الميدان ضوضاء السباب المقترن بالضحكات والرقص، بينما لافتات جديدة تشقُّ السماء كالسواري صارخة وسط الشاشة:

-أسقطوا الحكومة الفاشلة.

- لن نرحل قبل سقوط العصابة الحاكمة.

– نريد محاكمة أعضاء الحكومة اللصوص الذين نهبوا ثروات البلد ...إلخ.

سألت الوجوه المكفهرة والأعين المنطفئة الوميض والأيدي المرتعشة حولي:

- وماذا بعد؟

قال قائل:

- نُعاوِدُ القبض على العناصر المُخرِّبة.

قوبل اقتراحه برفضٍ قاطع.

قال آخر:

- ننحني للريح حتى تمرَّ وبعدها لنا كلام آخر.

تساءلتُ:

- ما المقصود بكلمة ننحني للريح؟

قال:

- إقالة الوزارة، وتشكيل وزارة جديدة لتهدئة الرأي العام.

تساءلت:

- ثم؟

- بعد تهدئة الأمور نقوم بتصفية الجيوب المُخرِّبة هنا وهناك.

قال ثالث:

- الأمر سهل، أعطوني ساعتين من الآن وسوف ترون ما يسرُّكم.

حدَّقتُ إليه عينيه مُحاولًا سبر غورهما، لمعة حدقتيه تنبئ عن ثقة وكلماته فيها تحديد لشيء يعرفه جيدًا، قلتُ:

- لا بد أن أعرف ماذا ستفعل بالضبط.

هَزَّ رأسه بثقةٍ:

- دعني أتصرف ولن نندم، ولاحظ أننا جميعًا في مركب واحدٍ.

قمتُ واقفًا:

- أمامك ساعتان، وبعدها نرى ما يجب فعله.

واستدرتُ لبقية الأعضاء:

- اللجنة ستظل مجتمعة لحين انتهاء الأزمة، وأنا معكم بطبيعة الحال.

وغادرتُ إلى غرفة أخرى أستطيع فيها أن أنفرد بأفكاري قليلًا في انتظار ما سوف تأتي به اللحظات القادمة.

كان يدور في رأسي لحظتها شيء آخر تمامًا تمنيتُ لو أمتلكُ الشجاعة للإقدام عليه، كنتُ أتمنى ومن صميم القلب أن أترك الأمر كله، وأعلن تنازلي عن المشاركة في أي شيء بعد الآن، وعودتي إلى القرية، وارتمائي في أحضان الأرض، أقضي ما تبقى لي من عمر في رحاب دفئها وبراءتها، أتنسَّم ريحها وأعاشر كما كنت قديمًا ناسها، مفسحًا الروح لبساطة حياتهم، وتقارب أرواحهم، ونقاء سريرتهم، وحلاوة كلماتهم، أذوبُ من جديد في نهر نقاء لا ينفد، وأرتوي من

رحيق صفاء ممتدٍّ بلا انقطاع، وأرمي خلف ظهري ما فعلته، وما فكرتُ في فعله، وما جابهته من رفض ومن معارضة وصلت إلى درجة الاعتصام وإملاء الأوامر وإلا فالتصعيد والتحدي والرفض القاطع لكل النظام.

هل هناك غنيمة تساوى هذه المغارم والمعاناة؟ وماذا يُجدي لي في هذه السن الجاه أو المال، أو حتى الكرسي العالي بكل مغرياته ومزاياه؟ قريبًا جدًّا أُودِّع كل شيء، فما جدوى التكالب على أي شيء؟

دقَّ الباب دقات ثلاث متعجلة، يكسوها القلق والاندفاع. كنتُ ممدًّا على الأريكة مُحدِّقًا إلى السقف أرقب اللمبات البيضاوية المتألقة بالنور، متسائلًا: كيف انسلَّ التيار إلى سلوكها فأجج فيها القدرة على التنوير، مُفكِّرًا في تلك المنظومة المتكاملة التي تؤدي في النهاية إلى بثِّ النور في المكان، متصورًا أن إنشاء منظومة كهذه في البلد وبين الناس لا تحتاج إلا إلى فكرٍ راقٍ، وتنفيذ دقيق، وبث أفكار تكون بمنزلة التيار الذي يسري في العقول فينيرها ويحول ظلامها إلى نهار.

لكن هذا لن يبدأ إلا بعد أن تنتهي هذه الظروف، لا بد أن تتغير القوانين وتكون محكمة، وفي الوقت ذاته شديدة الحزم لتجابه الخارجين عن القانون والعملاء وأصحاب المصالح.

العدالة المرتعشة اليد تطيح بكل القيم، وتمنح الفاسدين الفرصة لفرض أمراضهم وعاهاتهم على المجتمع. وكذلك العدالة البطيئة تقهر القلوب النقية، وتفسح المجال لمزيد من الفوضى والضياع. بعد هذه الأحداث سوف أغير أشياء كثيرة.

انتبهتُ للدقات الثلاث، أذِنْتُ لصاحبها بالدخول، رأيتُ وجهًا مرتعد السمات يستدعيني طالبًا انتقالي إلى اللجنة لمتابعة ما يتم الآن بالميدان فورًا، قمتُ متوكِّئًا على حافة المقعد وتحركت قدر استطاعتي إلى هناك، بمجرد دخولي إلى الحجرة ارتعدت نظراتي فزعًا وأنا أرى ما لم أتخيله قط ، جياد عفية وسط الميدان وبين المتظاهرين تجري بسرعتها بينهم، تطأ ما يقابلها دون أن تأبه لصُراخٍ أو تهتمَّ لعويلٍ، ودراجات نارية مجنونة ممتلئة بالحقد تضرب بأرجلها مهرولة وراكبوها يمسكون بسلاسل وجنازير حديدية يضربون بها وجوه المتظاهرين، وحولها بلطجية بأقنعة سوداء بسيوف ورماح، رافعين أيديهم دائرين بالمُدى والسيوف مهددين ومروعين الخلق وسط حالة من صراخ وأنين ومحاولات للتصدي لراكبي هذه الدرجات النارية والجياد بالعصي وأذرع الشماسي والعكاكيز.

صرختُ بكل ما أُوتيتُ من قوةٍ:

- أوقفوا هذه المهزلة فورًا.

قيل:

- مستحيل.

انهرتُ جالسًا على مقعدي جاحظ العينين، شاعرًا أن هذه هي القشة التي ستقسم ظهر البعير، فلم يعد الأمر مظاهرات لها مطالب تسعى لتحقيقها ثم تعود للهدوء، ولكنه تحوَّل إلى نهر دماء. وصمة عار ستلاحق النظام أينما سار.

سألت عن صاحب هذا الفكر المخرف:

-أين هو؟

قيل:

- يدير المعركة من حجرة عمليات قريبة من الميدان.

طلبتُ حضوره فورًا، وأنا لا أتمالك نفسي من غضب جارف، وتوتر لا يُحدُّ يمتلك روحي وينفذ إلى جميع خلايا عقلي.

كان يمكنني منذ البداية استخدام القوة، ولم أفعل، كان يمكنني رفض الإفراج عن هؤلاء الأولاد العملاء، ولم أفعل، ويجيء هذا المخرف بكل بساطة ويوقعني في هذا الفخ!

رأيته مزهوًا بنفسه يدخل من الباب، أمرتُ فورًا بعزله من منصبه وإلقائه في السجن لحين التفرغ له، وأمرت بسحب الخيول والدراجات النارية والبلطجية ذوي الأقنعة السوداء فورًا وبأي ثمن، وكذلك إعلان عزل الحكومة الحالية وتشكيل حكومة جديدة تكون أولى مهامها الاستجابة لمطالب المعتصمين، وخرجتُ بنفسي لإعلان هذا على الناس مباشرة، راجيًا أن أمحو الأثر البالغ السوء الذي تركه هذا الهجوم الغادر البالغ الخسة والغباء.

موت ليلى

عدتُ بعد إلقاء كلمتي إلى القاعة، فُجعت بمنظر جديد لم أرَه من قبل، عادل زوج ابنتي في أقصى القاعة يبكي! هوى قلبي مرتطمًا بكل أحجار الوجود، مُفتتًا كما لم يتفتت من قبل، عادل لا يبكى بسهولة، دموعه عزيزة المنال، مشاعره ليست مباحة للأعين، وتوجست شرًّا شاعرًا أن المجهول الذي طالما خشيتُه يضرب روحي بقوة وعنف، ودون أن يأبه لجسدي الواهن، ولا روحي المتآكلة وقلبي الذي غزاه المشيب، حدَّقتُ إلى عينيه صامتًا وإن كانت نظراتي تصرخ:

- قل ما أخشاه. قل ما سوف يُمزِّق روحي ويدُّك بنيان قلبي. انْطِقْ بالخبر المشئوم الذي تصرخ به دموعك، وتحكيه قسماتك، وتعبر عنه نظرات عينيك. انْطِقْ بالله عليك.

هَمَسَ بحروفٍ متقطعة كما توجستُ:

- ليلى.. ماتـــــت!

وتفجَّر قلبي نازفًا حسراته ودموعه وشقاء نبضاته غير مبالٍ بـشيء سوى ما هو فيه.

أبعاد المؤامرة

كان اختيار وزراء جدد في ظل هذه الأزمة المستعرة يُشبه طلبك من العصافير أن تتساقط بين يديك لتنتف ريشها وتلقيها في النار، أو سؤالك مجموعة من البشر أن يذهبوا إلى الجحيم راضين.

ورغم هذا كان لا بد من الإسراع، وهذا يستلزم أن تقوم أجهزة الدولة بالانتهاء من الفحص والتمحيص والتدقيق في فترة لا تقاس أبدًا بما يجب أن تتم فيه في الظروف العادية ، ورغم هذا نجحنا فيما نريد، وهذا ما أدهشُ له وأعجبُ، فنحن إذا أردنا شيئًا - مهما يكن ما نريد، ومهما تكن صعوبته، وربما استحالة فعله - نفعله، بل نتميز في فعله أيضًا، لكننا للأسف قد فقدنا - وعن جدارة - الإحساس بالعزم، أو الإرادة، أو التصميم، كأن الحياة قد صارت بلادة واسترخاء، أو أنه

ليس هناك أبدع مما كان، أو ربما داخليًّا نحن راضون بالفشل الذي غرقنا فيه إلى ذقوننا دون أن نفكر لحظة في البحث عن مهرب مما نحن فيه.

تسلم الوزراء عملهم فورًا، وكانت أول مهمة لهم مجابهة التصعيد الخطير للموقف في المدن كافة، والتي تحولت إلى بؤر مشتعلة لا تعرف النوم ولا الهدوء ولا التفاهُم ولا حتى معنى كلمة الحوار. انتشرت حالات القتل والسرقة والتخريب هنا وهناك، وتشتت الشرطة فلم تعد تستوعب ما يجري، مما حدا بأفرادها للتوقف عن محاولة الصَّدِّ، أو حتى الوقوف في وجه ما يجري، مما زاد من انهيار الموقف، واستدعى نزول قوات الجيش إلى الشوارع والميادين، وانتشار الآليات العسكرية، والقوات الخاصة بلباسها المميز وأقنعتها التي لا تُظهِرُ سوى العيون بالأسلحة والنيران الحية لتفرض سيطرتها على بلد يعالج الانهيار، وبطبيعة الحال انتهزت القوى المعادية في الخارج هذه الحالة لتظهر أنيابها وتمدَّ مخالبها باحثة عن غنيمة سريعة تقتنصها قبل غيرها، وبدأت تلوح في الأفق أسرار ما يُدبَّر للبلد في الخفاء، فالأمر لم يكن أمر فتية تم غسيل عقولهم ليخونوا بلدهم فقط، بل كانت خطة مدبرة لإسقاط النظام ككل، ونشر الفوضى، واقتناص الفرصة لإشعال الفتن هنا وهناك لتمزيق كل أواصر الصلة بين المدن وبعضها البعض، والعصبيات والعشائر التي تعايشت طوال عمرها في أمن وسلام دون أن تفكر أو تتخيل أن تقف بعضها بالنار لبعض مهما تكن الأسباب. ونظرًا لخطورة

الموقف ككل رأيت من واجبى أن أناشد الجميع الركون إلى العقل، والبُعد عن السير وراء الانفعالات اللحظية أو الأفكار التي تروجها تلك الجماعات، والعودة فورًا إلى الحوار، وتغليب المصلحة العليا للبلد على أي شيء آخر، وبدأتُ أستعدُّ لمخاطبة الشعب شارحًا كل ما لديَّ.

تحركتُ من قاعة المتابعة قاصدًا التوجُّه لإصدار البيان الثالث لى منذ بدء الأزمة، ارتعدت يدي وأنا أستمع من الميدان إلى هتافهم الجديد:

- ارحل ارحل يا جبار.. إنت خسيس ورمتنا في نار.

- الشعب يريد إسقاط الحاكم الفاسد.

- لن نرحل قبل رحيلك عن الحكم...إلخ.

عدتُ إلى القاعة من جديد، تهاويتُ على مقعدي مُكتفيًا بالتحديق إلى الشاشة التي زيادة في إغاظتي أخذت تُعيد وتزيد في هتافاتهم، كأنها تشعر وتحسُّ بفرح لإزاحة ورقة التوت الوحيدة عن عورة الحكم.

تحركتُ بآلية إلى الكاميرات، ألقيتُ بيانًا رجوتُهم فيه التريُّث قبل هدم المعبد على من فيه، وطالبتُهم بالرويَّة والتفكير في مصير البلد قبل مصير الأفراد، وعاهدتُهم على الإصلاح ما استطعتُ.

بعدها عدتُ إلى مكتبي أجرُّ قدميَّ جرًّا وقد شعرتُ بالعمر وهو يهرول أمامي مجتازًا كل المراحل ليضعني أمام شيخوخة كنتُ في شرود عنها، شيخوخة تسري في الروح والقلب وتملأ الجسد ببثورها وأدرانها

وأنا لا أدري، لكنني الآن والآن فقط رأيتُني لا أمتلكُ القُدرةَ على التحكُّم في أعضائي كما كنتُ سابقا، تمردت هي الأخرى ولم تعد تخشى بطشي وقوتي، قابلتني حفصة مذعورة الخطوات، باهتة النظرات، متخبطة في سيرها وهي تنظر هنا وهناك في حيرة لا تدرى أين يمكنها أن ترمي بنظراتها المرتعدة، حدَّقت إلى وجهي:

- الأمر خطر؟

حدقتُ إلى عينيها صامتًا مهزوم النظرات، لا أعرف كيف واتاني هذا الشعور الآن وأنا أراها أمامي عجوزًا واهنة يكتسح المشيب وجهها ورأسها دون أن توقفه كل الأشياء التي كانت تستخدمها لخداع نفسها أنها ما تزال في طور النضج، بينما الولد الخائب مسعود هناك يقف ناظرًا في حياد تام، لا يُكلِّفُ نفسه مشقة معرفة ما آلت إليه الأمور، قلتُ أخيرًا:

- خطر جدًّا.

ومضيتُ عنها إلى المكتب، استدعيتُ رماحًا فورًا وقد استشعرت بوادر سقوط لا مفر منه، أغلقنا علينا الباب وبدأت الحديث معه:

- ماذا ترى؟

- بلدًا يتهاوى أمام أعيننا ونكافح لمنع سقوطه.

- وهل سننجح؟

- لا بد، من أجل البلد لا الأشخاص.

- وماذا ترى؟

- هناك إصرار على إسقاط النظام الحالي، وللأسف استغلوا معاناة الشعب وكمية الغضب الكامن في الصدور لصالحهم.

- هذا صحيح.

- حجم المؤامرة كبير، ولا بد من مواجهتها باتزان وتعقل بعيدًا عن الانفعال، واستغلال كل ذرة حكمة في رؤوسنا من أجل الإفلات من المصيدة المنصوبة للبلد.

- هل ترى أن أعلن استقالتي؟

- هذا أمر لا مفرَّ منه.

- وتقوم بصفتك قائد القوات بالحكم لحين إجراء انتخابات جديدة.

- لن أتردد إذا كان هذا في مصلحة البلد.

- وأنا، وأسرتي؟

- لك مُطلَق الحرية فيما تفعل.

- لن أغادر البلد، أعرف أنني سأتعرض للسجن والمحاكمة، ولكن العمر ليس بأهمية الشرف، على الأقل في هذا العمر.

- أعِدُكَ بشرفي العسكري أن أحميك ما دام باستطاعتي هذا.

- وأنا أثق بك.

كتبتُ ديباجة البيان الأخير، استدعيتُ مساعدي الذي جاء مُكفهِر الوجه، أمرتُه بإلقاء بيان الاستقالة فورًا، وخرجتُ إلى حيث آويتُ إلى حجرتي، مستسلمًا لرقاد لم أرَ مثل آلامه من قبل. لكنني فتحتُ عيني مُرتاعًا على أصوات هادرة قريبة إلى درجة مخيفة، دكَّت أذني دكًّا، سألت مذعورًا:

- ما الأمر؟

قيل:

- الجماهير خلف الأسوار مصرة على الدخول، والقبض عليك وعلى أسرتك والحرس يبذل جهده لمنعهم.

ارتميتُ مكاني مشلول النظرات والفكر والحركة، حتى الهواء لحظتها شعرت أنه تمرد عليَّ، وكل ما أعيه من هذه اللحظات أنني رأيت وميضًا كلمح البصر يخطف روحي، يُصوِّرُ لي أشياء أراها سريعة متلاحقة دون أن أمتلك القدرة على إيقاف تلاحُقها في رأسي ولا حتى أتريث لالتقاط أنفاسي، رأيتُني أقع بين أيديهم، أتمزق بينهم، أتهاوى، أتبعثر، تتوه عبر الأزقة والحارات قطع جسدي، لا يستطيع مخلوق جمعها من جديد، ويستديرون على مسعود ولدي، وعلى حفصة زوجتي، وعلى سعاد ابنتي، يمزقون الثياب، يكشفون العورة، لا.

قمتُ ملتاعًا وأنا أهزُّ رأسي بكل قـواي مُحـاولا نثـر الـصور بعيـدًا عني، مضيتُ إلى إحدى النوافذ، الأبواب الحديدية تهتزُّ بفعل موجـات البشر التي تدفعها بعنف، النهار نوره نار، والقصر الفسيح صـار سـجنًا صغيرًا لا يتسع للاحتماء به، والعسكر المساكين لا يمتلكون القدرة على الصَّدِّ، الكون يضيق عليَّ، السماء الفسيحة التي كانت قريبة دومًا تبتعـد وتتوارى خلف حجاب، الأرض تفتح فوهتها إلى أعمق أعماقها لتبتلـع قلبي الذي يتهاوى بلا قرار، ارتميتُ على مقعدي مهدمًا، عـاجز الفكـر والجسد والروح متهالك القلـب زائـغ النظـرات، تنبهـت لعينـي قطـة سوداء حانية النظرات ترمقني على البعـد عنـد مـدخل البـاب وتنطلـق مولية إلى حيث لا أدري، لم أبالِ بها فما يجري الآن قد ترك عقلي صـفحة بيضاء مطموسة الوعي والإدراك، تعالت الهتافات أكثـر عـن ذي قبـل، وسمعت طلقات نارية تنطلق متحدية ومصممة على إشعال مزيـد مـن النيران، اجتاحتني رغبة أن ألقي نفسي بـين أيـديهم وأُنهـي هـذا الأمـر فورًا، فوجئتُ بأعداد من القطط لا تُحصى تسعى نحوي، تـشدُّني إليهـا، أتحول إلى واحد منها، أسير برفقتها، أهرول، أجتاز الطرقات، أثِبُ مـن النوافذ إلى الطريق في اللحظة ذاتها التي تهاوت فيهـا الأبـواب وتراجـع الجنـد وداسـت الأقـدام أرض القـصر وامتـدت الأيـدي إلى مـا فيـه، وهرولت الأعين تبحث في أرجائه مُنقِّبة لتشفي غليلها وتنهي مرحلة لا بد أن تنتهي بأي حال، هرولت وسط القطط خارجًا إلى الطريق، محاطًـا بالعشرات منها أمنًا مطمئنًّا، شاعرًا بعرفانٍ كبير لتدخلها في وقت حرج كعادتها معي، التفت لأقدم الشكر لإحداها، رأيـتُ أعـدادًا كبـيرة مـن

الكلاب الوحشية الظاهرة الأنياب، اللاهثة الأنفاس، بألسنتها المدلاة أمامها تتقدم نحونا متحدية، محاصرة لنا، متوثبة علينا وصراخها يملأ الأجواء، تحفزت القطط لها، قوست ظهورها استعدادًا للدخول في صراع دامٍ، رافضة الإذعان أو الاستسلام لها، معلنة الثورة عليها وعلى تدخلها الدامي وعوائها المجنون، الكلاب أيضًا زمجرت وعلا عواؤها عن ذي قبل وهي تستعدُّ للاندفاع، اندفع العواء، صَدَّه المواء، تراشقا بالسباب وكُلٌّ منهما يتقدم خطوة ويتأخر أخرى، ينتظر اللحظة التي ينقضُّ فيها على الآخر، وهنا رأيت ذئابًا شرسة تظهر قادمة لتقتحم المكان، تهجم بكل الحنق، وثعالب ماكرة تكرُّ، وضباع متوحشة تتحرك، الكل انتهز الفرصة وكَرَّ بكل طاقته ليضرب بقوة، بعنف، بحنق، بكراهية لا يحدُّها حدٌّ ولا تعرف توقُّفًا ولا تأبه لشيء إلا إنزال مزيد من القهر والذل والهوان والقتل والتدمير بكل من تقابله إلى الدرجة التي وقفت فيها الكلاب ناظرة إلى ما يجري، وربما فكرت في الدفاع عن القطط أمام هذا الجنون المُطبِق، أخذت الكلاب تنفذ بين صفوف القطط التي توقَّفت أمام هذا الفيضان الجارف ساكنة تُحدِّق في تسليم، دارت حولها تتشمم الروائح وتحدق إلى الوجوه حتى وصلوا إليَّ، أحاطوا بي واقتادوني مقيدًا إلى محبسى، وحيدًا إلا من مرارة انتظار لا أدري إلى متى سيطول.

بعدها علمتُ أن رماحًا قد تولَّى الأمر، سيطر بأقصى ما يستطيع من سرعة على الكرسي، تولى مطاردة الذئاب الغريبة والضباع والثعالب

وغيرها، تولى أمر الكلاب، أما القطط فمنذ سُجنتُ وأنا لا أراها ولم أسمع عنها خبرًا!

ولأنني وجدتُ منذ تم نقلي إلى هذا المنزل الكائن على حافة الكون أوراقًا وأقلامًا فقد وجدتُها فرصة لأشغل وقتي الذي امتدَّ بلا حدود أولًا، وثانيًا أقول ما لديَّ لعل الغد أو بعد الغد يأتي منصفًا يقرأ ما بين السطور، يكشف المسئول عمَّا جرى، يُحدِّد الجاني والمتهم الأصلي، ويُبرِّئ مَن يستحق التبرئة والغفران!

تمت بحمد الله

الإسكندرية في ٨/ ١٢/ ٢٠١٥

سيرة ذاتية

الاسم / محمد عباس على داود

المهنة / مهندس كهرباء وقوى كهربية،

العنوان / ص ب ٥٩٦ مركز الحركة- محطة مصر- إسكندرية- مصر

الكتابة / قصه قصيرة – رواية – شعر.

إيميل

Mdawod58@yahoo.com
abassalym@yahoo.com
mobil: 01273803190

كتب مطبوعة

- الوهم والضحكات قصص
- حين تميل الجدران قصص
- الطريق إلى منبع الشمس قصص
- الملكة قصص
- أشياء لا تحدث مرتين رواية
- حلم الذي هوى رواية

- ثورة الحمير قصص أطفال
- آنات وتر مشدود قصص
- فاطمة تعيش الحلم قصص(جائزة الطيب صالح ٢٠١٥)
- حديث مع السكون ديوان (عماد قطري للنشر)

قصص وأشعار منشورة

أولاً: في مجلات

العربي - الحرس الوطني - الفيصل- الكويت - الدوحة -الراوي - عبقر- الحركة الشعرية بالمكسيك - الثقافة الجديدة - حواء-القصة- الهلال -حسمى -الرافد - المجلة العربية - نادي الجسرة الثقافي.

ثانيًا: في جرائد

الأهرام - الأخبار- الجمهورية- القاهرة - المساء - طنجة الأدبية.

ناقش أعماله النقاد:

-المرحوم د .مصطفى هدارة - د.سعيد الورقي - د.محمد عبد الحميد - د.مدحت الجيار - شوقي بدر يوسف - د.مصطفي الضبع- د.مجدي توفيق -كمال عمارة.

جوائز أدبية

- مجلى النصر والقوات المسلحة.
- جائزة نادي القصة.
- جائزة هيئه قصور الثقافة (الطريق إلى منبع الشمس) أفضل مجموعة قصصية على مستوى مصر عام ٢٠٠٢.
- جائزة الطيب صالح في القصة القصيرة عن مجموعة فاطمة تعيش الحلم.
- جائزة نادي الطائف بالسعودية.
- العضوية الأدبية.
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر.
- عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب.
- عضو نادي القصة.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي.